الجزء الخامس

سورية قبيل الوحدة

الفصل الأول
الاتفاقات الاقتصادية مع روسيا

على اثر تسلمي وزارة الدفاع في مطلع ١٩٥٧ ، عقدت مع رئيس الاركان العامة ومعاونيه رؤساء الشعب عـدة اجتماعات بحثنا خلالها ـ في جملة مـا بحثناه ـ قضية المعـدات العسكرية التي اشترتها الوزارة مـن الاتحاد السوفييتي وتشكوسلوفاكيا وبولونيا ، وما يلزمها من اسلحة اضافية ومستودعات تحفظ فيها الآليات الثقيلة ، كالدبابات والذخائر الحربية واللباس ، الخ. ، وما اقتضته زيادة افراد الجيش السوري من ثكنات ودوائر. وكانت الحاجة الى تلك المنشآت تزداد بنسبة زيادة مشترياتنا من الاجهزة العسكرية ، بحيث لم تعد الثكنات والمستودعات الحالية كافية لايواء العدد والعدة . واصبحت الكمية الكبيرة مـن المعدات والاجهزة والذخائر مودعة في الهواء الطلق ، تتعرض للفساد والانفجار ولغير ذلك من الاخطار ، عدا ان عددا كبيرا من افراد الجيش كان ينام تحت الخيام ، عرضة للبرد القارس او الحر الشديد .

الاسباب الموجبة لطرق باب الاتحاد السوفييتي

ووصلت الارقام التقديرية لكلفـة انشاء هـذه الثكنات والمستودعات الى عشرات الملايين من الليرات السورية ، بل تعدت ذلك الى المئة وخمسين مليونا . ولم تكن موارد الدولة قادرة على مواجهة نفقات الجيش المتزايدة ، لا سيمـا ان الارقام التي ذكرتها لم تكـن شاملة قيمة المعدات الحربية نفسها ، سواء منهـا ما كنا تسلمناه ولم نسدد بعد الا قسطا واحدا من اقساط قيمته ، او ما كانت الحاجة تقضي بمواصلة تداركه سنة فسنة . وهكذا اصبح مجموع متطلبات الجيش للسنين العشـر القادمة لا يقل عن مليار ليرة سورية .

هذا العجز المالي كان يفرض علي ـ مع انني لم اكن بعد قد تسلمت شؤون وزارة المالية ـ التفكير عميقا بما يمكن ان يؤمن لنا تدارك هذا المال . ولم يكن الاقتصاد السوري ، في وضعه الحالي،

قادرا على اسعاف هذه المطالب الضخمة . ولم يكن من الميسور التفكير بفرض ضرائب جديدة او زيادة الضرائب الحالية ، اذ ان مجموع الميزانية السنوية العادية كان ٣٤٠ مليون ليرة . اما الميزانية الاستثنائية ، فلم يكن لها موارد حقيقية ، اذ ان ضريبة كضريبة الانتاج، مثلا، لم تكن تعطي اكثر من ١٥ مليون ليرة سورية سنويا . فكيف يمكن ان يعتمد على ضرائب ورسوم للحصول على ما يقابل هذه النفقات الهائلة ؟ هذا فضلا عن انه ، في السنين الاولى من برنامج العشر سنوات ، كانت النسبة السنوية للنفقات اكثر بكثير منها في السنوات الاخيرة .

هذه العوامل كلها جعلتني اقضي الساعات الطويلة في استنباط وسيلة تؤمن تدارك هذا المال ، دون اللجوء الى تخفيض النفقات اللازمة للدفاع عن البلاد . وانتهى بي التفكير الى ان الوسيلة الوحيدة هي زيادة الدخل القومي زيادة تجعله قادرا على مواجهة قسم من هذه النفقات وايجاد موارد جديدة للدولة ، لا عن طريق الضرائب والرسوم، لكن عن طريق مشاريع زراعية وصناعية تدر على الخزينة موارد كبيرة يستطاع تكريسها لسداد هذا العجز .

ولم تكن سوريا فقيرة في الامكانات . فهنالك الاراضي التي تملكها الدولة ولكنها لا تستغلها لنقص الري فيها . وتقدر مساحة تلك الاراضي بمئات الوف الدونمات . وهنالك مواقع عديدة يمكن فيها انشاء سدود نهرية تخزن ما يكفي من مياه الشتاء لارواء مساحات كبيرة من الاراضي التي يملكها الافراد ليزيد دخلهم العام ومورد الدولة من هذه الزيادة . وهنالك صناعات عديدة تحتاج اليها البلاد تمكن الدولة ، اذا قامت بها ، من الحصول على موارد كبيرة ومن الحفاظ على جزء من المال كان يذهب الى الخارج .

والى جانب ذلك ، كانت الخطوط الحديدية في البلاد لا تؤمن حاجة النقل بشكل منتظم ورخيص ، مما كان يجعل قيمة منتوجاتنا الزراعية تئن تحت وطاة اجور النقل الغالية ، فتخسر اسواقا عالمية عديدة .

وفوق كل هذه الامكانات ، ثمة معادن ثمينة لم تستغل ، واهمها النفط .

كل هذه المشاريع لم اكن وحدي الذي فكر فيها . لكن احدا لم يتوصل الى استنباط الوسيلة لتدارك المال اللازم للقيام بها . فراس مال الافراد والدولة لم يكن ليجابه هذه المتطلبات . بل ان

احدى الحكومات فكرت باللجوء الى البنك الدولي للاستقراض منه ما يكفي بعض المشاريع . الا ان هذه المؤسسة ما كانت تهتم الا بالمشاريع التي تفيد منها سياسة الدول الغربية ، ناهيك بالشروط التعسفية التي كانت المؤسسة تفرضها ، سواء من حيث مراقبة الانفاق او تحديد الشركات التي يعهد اليها العمل او حتى كيفية استثمار المشاريع بعد اكمالها . وهذه الشروط القاسية حالت دون انجاز المشاريع التي كانت الحكومات المتعددة تقدمت بها ، كما جعلت هذه الحكومات لا تجرؤ على اقتراحها على مجالس النواب.

اما الولايات المتحدة التي كانت تبعثر الاموال يمنة ويسارا باسم مساعدة الدول المتأخرة ، فلم تعرض على الحكومة السورية اية مساعدة مالية ، علما منها بأن اية حكومة سورية لا تقبل او لا تجرؤ على قبول شروط تلك المساعدة ، ورغبة منها في اخضاع السوريين وارغامهم على الالتجاء الى قبول مساعدتها مع تلك الشروط التي كان من شأنها تسيير سياسة سوريا تبعا لسياسة الولايات المتحدة ، كما اضطرت الى ذلك تركيا والعراق والسعودية ولبنان ، وغيرها من الدول العربية او سائر الدول في العالم .

فأمام هذه الاحتمالات وصعوبة اللجوء اليها او استحالتها لم يبق امامنا سوى طرق باب الاتحاد السوفييتي والسعي للحصول منه على مساعدة مالية واقتصادية وفنية دون ان يكون اي شرط سياسي او غيره مقرونا بتلك المساعدة .

ولا شك في ان صفقات الاسلحة التي اشترتها سورية من الاتحاد السوفييتي وتشكوسلوفاكيا كانت نوعا من المساعدة ، لا من حيث مجانية الصفقة ، لكن من حيث رخص السعر وطول آجال دفع الاقساط . ولا يستطيع منصف ان يدعي ان سورية ومصر ، بعقدهما هذه الصفقات ، تنازلتا عن جزء من سيادتهما او انهما ارتبطتا مع احدى هاتين الدولتين بأي التزام او تعهد من اي نوع كان .

وكان الخير كل الخير في هذه العقود التي رفعت قوة الجيشين السوري والمصري الى درجة اعلى كثيرا من قبل . ولم يكن لهذه الصفقات نقطة ضعف سوى اثارة الغرب علينا وانتقاله فجأة من موقف المساير المنتظر وتوغلنا في شباكه بدون عنف الى موقف المخاصم المهاجم المتآمر علانية .

لكننا كنا نقيس بميزان التعقل والحكمة ارجحية سلوك احد

الطرق الآتية :

١ ــ سلوك سياسة الحياد بين المعسكرين .

٢ ــ الانضمام الى المعسكر الغربي .

٣ ــ الانضمام الى المعسكر الشرقي .

اما بشأن تدارك الاسلحة والحصول على المساعدات الاقتصادية ، فلم يكن امامنا سوى :

١ ــ التعاقد مع المعسكر الشرقي .

٢ ــ تجميد وضع الجيش بعدم شراء الاسلحة ، لان الغرب كان يرفض بيعنا ما يلزمنا ويحمل الدول المحايدة على سلوك مسلكه ، وتجميد برامجنا الانشائية ايضا .

فأما الاتجاه السياسي ، فقد اتفقنا عليه وحددناه في مؤتمر باندونغ . وتبعا لذلك رفضنا الانضمام الى حلف بغداد ، والى حلف شرقي البحر المتوسط ، والى اتفاق الدفاع المشترك . اذ كانت هذه كلها من اختراعات الغرب واساليبه العديدة الاشكال لربط الشرق الاوسط بعجلة سياسته . وهكذا قطعنا اية صلة كانت تصلنا بدول الغرب .

واما عن الانضمام للكتلة الشرقية ، فيجب ان يذكر ، بادىء ذي بدء ، ان سورية لم يعرض عليها ولم يطلب منها ، في اي وقت، الارتباط باية دولة اوروبية شرقية باي رباط او حلف او معاهدة او غيرها من انواع الاتفاقيات الشفهية او المدونة التي تربط دولتين او اكثر في السياسة الخارجية والاجتماعية او الاقتصادية ، بما يؤدي الى تشابك مصالحها والدفاع عن تلك المصالح المشتركة .

وعلى الرغم من ذلك ، فلم يكن لدينا في الاصل رغبة او تقبل لاي ارتباط بالدول الشيوعية يجعل سياستنا الخارجية والداخلية والاجتماعية مرهونة بسياستها الخاصة .

فكنا ولا نزال نؤمن بالعروبة ولا ننظر الى الحوادث العالمية الا من حيث اثرها على كياننا واستقلالنا وقوميتنا . اما المذهب الشيوعي ، ففيما عدا المؤمنين به ، لم يكن في سورية من يقول به، لا الاقطاعي ولا الاشتراكي ولا المتمسك باي مذهب آخر .

واما التعاقد مع احدى الدول للحصول على مساعدات اقتصادية تمكننا من تحقيق انعاش بلادنا ، فلم يكن امامنا سوى الاتجاه صوب الاتحاد السوفيتي ، بشرط الا تقترن هذه المساعدات

باي تدخل في شؤوننا او التزام سياسي يضعف استقلالنا وحريتنا .

وكان من جراء تفكيري العميـــق في هذه الامور ، ان رايت ضرورة البحث مع اركان الحكومة السوفييتية ، عسانا نحصل منها على مساعدة اقتصاديـــة ترافـــق صفقات الاسلحة التي كان لا بد لنا من الاستمرار علـــى شرائهـــا للحفاظ على قوة الجيش وتزويده باسلحة عصرية قوية .

ففاتحت سفير الاتحاد السوفييتي وطلبـــت اليه تبليغ حكومته رغبتي في السفر الى موسكو لبحث امكانية الحصول على مساعدات اقتصادية ولتبادل الراي في شؤون تتعلـــق بتزويد الجيش بمعدات عسكريـــــة .

الاتحاد السوفييتي يرحب بزيارتي له

وتاخر الجواب اكثر مـــن شهرين ، حتى اتاني السفير في احد ايام حزيران ١٩٥٧ وابلغنـــي ترحيـــــب حكومته بزيارتي وطلبها الاطلاع على تفصيل المسائل التي سأثيرها في موسكو . فأجبته بان التفاصيل هي من شأن الخبراء والموظفين ، اما انا فغايتي الحصول على الموافقة المبدئية على الخطوط العريضة للمساعدة الاقتصادية . وفي سبيـــل ذلـــــك ، ارى ضرورة اجراء الاتصالات الرسميـــــة في موسكو .

وجاء الجواب في اواخر حزيران بالموافقـــة على الاجتماع في موسكو . وحددنا الموعد في الاسبوع الاخير من تموز المقبل .

عندئذ عرضت الامر مفصلا على مجلس الوزراء وذكرت انني سأنتهز فرصة المرور ببراغ للاجتماع الى اركان حكومتها ، رغبة في الحصول على تمديد آجال دفع ثمن صفقة الاسلحة الى عشر سنين، تلك الصفقـــــة التي كانـــت الخزينة تئن من حمل اعباء اقساطها الاربعة ، بسبب فقدان الاعتمادات اللازمة لتسديدها .

ووافق مجلس الوزراء علـــى الفكرة ، لكنه لم يتخذ اي قرار مكتوب ، رغبة في ابقاء خبر الرحلة سرا . واتفقت مع وزير الاشغال العامة والمواصلات السيد فاخر كيالي على اعداد الدروس الموجودة في وزارته لاخذها معنا الى موسكو .

وفي اليوم الرابع مـــن تموز سافرت الـــى روما لقضاء فرصة العيد والاستجمام في الربوع الايطاليـــــة ، على ان اجتمع في اليوم الثالث والعشرين من تموز في براغ الى رئيس الاركان العامة اللواء توفيق نظام الدين وبقيـــة اعضاء الوفد العسكري الذي سيرافقني الـــى موسكو .

وبنفس الطائرة التي اقلتني الى روما ، كان السيد صلاح الدين البيطار مسافرا الى بلغراد عن طريق روما . ومكثنا في عاصمة ايطاليا اربعة ايام اجتمع فيها وزير خارجيتنا السيد البيطار الى وزير خارجية ايطاليا ورئيس جمهوريتها . وفي اليوم الثامن من تموز توجهنا، البيطار وانا، الى الفاتيكان لمقابلة البابا. وكان يرافقنا السيد انور حاتم وزير سورية المفوض .

مقابلتي البابا مع صلاح البيطار

وكان استقبال البابا لنا وديا . فتكلمت عن الحالة في سورية وعن خطة حكومتنا بالتزام جانب الحياد . وشرحت للبابا اسباب هذا الاتجاه وفوائده . ثم انتقلت الى ذكر الوئام المستتب بين سائر الطوائف في سورية ، وذكرت قضية فلسطين وضرورة التآزر بين المسيحيين والمسلمين فيها . ودامت المقابلة نحو نصف ساعة ، انتقلنا بعدها الى مكتب وزير خارجية الفاتيكان ، حيث التقينا الوزير الذي تسلم الحديث معبرا عن شعوره وشعور البابا بشأن قضية فلسطين . ثم ذكر ان الكرسي الرسولي لا يستطيع التظاهر في هذا الشأن ، لكنه يبذل كل جهده لدفع اذى اليهود عن المسلمين والمسيحيين على السواء .

وخرجنا من هاتين المقابلتين غير قانعين بان الفاتيكان قائم بما يوجبه عليه امر الدفاع عن الاراضي المقدسة ، بل انه يخشى الامريكيين ويتحاشى الظهور بمظهر قد يحرمه المساعدات المالية الكبرى التي يعتمد على وصولها اليه من كندا والولايات المتحدة . وايقنت بان لا فائدة ترجى منه لمساندة القضية الفلسطينية ، اذ انه يمالىء السياسة الامريكية ولا يريد الخروج عما ترسمه من خطط .

وفي اليوم التالي بارح السيد البيطار روما قاصدا بلغراد بدعوة من الحكومة اليوغسلافية . وتلقيت فيما بعد كتابا منه يعلمني بان الرئيس تيتو ابدى له استعداد حكومته لبذل كل مساعدة لسورية لتنفيذ برنامجها الانشائي، ووعده بارسال الخبراء الفنيين.

وبدا السيد البيطار في كتابه متحمسا لهذه المحادثات التي لا شك في انها اثرت على عقله وجعلته لا يتحمس للاتفاق مع الاتحاد السوفييتي ، بل يسعى في الخفاء الى عرقلته . ومن يعرف ان حزب البعث يخاصم الشيوعيين يتبين له سبب موقف البيطار في الحوادث التي ادت الى اعلان الجمهورية العربية المتحدة . وسيجيء ذكر ذلك في حينه .

ثم بارحت روما الى بون ، عاصمة المانيا الغربية ، واجتمعت الى الامين العام لوزارة الاقتصاد . فسردت له ما تحتاج اليه سورية في الحقل الاقتصادي من قروض او مساعدات مالية وفنية لتقوم بتنفيذ المشاريع الزراعية والصناعية والسكك الحديدية . وبينت له اننا نقبل ان نتلقى رؤوس الاموال الاجنبية على شكل قرض طويل الاجل ، او على شكل مساهمة بحصة في الشركات التي تتولى تحقيق هذه المشاريع . فاهتم الامين العام ومساعدوه كثيرا بالامور التي اوردتها ، لكنهم اظهروا عدم استعداد حكومتهم لاقراضنا ، بحجة ان اصحاب رؤوس الاموال الالمان لا يفكرون في الاشتراك مع اصحاب راس المال السوري . لكنهم مستعدون لبيعنا ما نريد من الآلات باقساط لا تتجاوز مدتها سنة واحدة. وكان طبيعيا ان اتلقى هذا الجواب السلبي . فامريكا التي تسيطر على سياسة المانيا الغربية ، واليهود الذين يسيطرون على اقتصادياتها ، لا يسمحون بمساعدة سورية وتفريج كربتها ، اذا هي لم تخضع لهذين النفوذين .

ثم اوضحت للامين العام ان سورية تصدر سنويا كميات كبيرة من الحبوب الى المانيا . اما في السنة الحالية ، فلم تر اقبالا منها على استيراد حبوبنا . وطلبت اليه العمل على شراء كمية من القمح ، وكان موسمه عامئذ جيدا في البلاد .

فاجاب الامين العام بانه تقرر ان يسمح للتجار الالمان بان يشتروا من سورية ثلاثين الف طن . فاجبته بانهم كانوا يشترون في السنوات الماضية ما يزيد على مئة وخمسين الفا ، وبان الترخيص وحده لا يكفي لحملهم على الشراء . لذلك اطلب الى الحكومة الالمانية ان تحملهم عليه . فاظهر الامين العام اسفه لانه لا يستطيع ان يفعل اكثر من ذلك .

خيبة املي من المانيا الغربية وزيارتي براغ

وهكذا خاب املي بامكان التعاقد مع المانيا الغربية . واضفت هذا الرفض الى ما سبق ان عانيناه من سياسة التطويق الاقتصادي التي بدأت الدول الغربية بتنفيذها ضدنا ، والى ما لمسته في ١٩٥٥ من رفض فرنسا بيعنا الاسلحة والذخائر الا بشروط تمس سيادتنا والى امتناع الولايات المتحدة وبريطانيا عن تجهيزنا بالمعدات العسكرية ، والى ما كنا نواجهه من مشاكل ومماحكات لدى سائر الدول الاوروبية ، بحيث اصبح جيشنا مهددا بنضوب الذخائر والاسلحة ووقوفه في وجه اسرائيل وقفة ضعيف تجاه مقتدر .

ومن ، بعد هذا الفشل في محاولة اقناع المانيا الغربية بمساعدتنا ماليا واقتصاديا ، لا ارى امامي سوى الاتحاد السوفييتي الذي مدنا بالسلاح في المرة الاولى وقام بمساندتنا في المجال السياسي العالمي ، دون ان يشترط اي شرط سياسي واقتصادي.

وغادرت بون الى هامبورغ حيث زرت في جوارها معملا لتصفية النفط تملكه شركة كونكورديا التي كانت حصلت على رخصة تنقيب عن البترول في سورية . وفي حفلة الغداء التي اقامها رئيس الشركة احتفاءا بي ، اوضحت ان سورية ترحب برؤوس الاموال الاجنبية وتفتح امامها سبل العمل في سورية ، بشرط ان لا تكون هذه الاموال مطية للاستعمار وخادمة لاغراضه . واوضحت ايضا ان سياسة الحكومة الحاضرة في سورية هي سياسة اشتراكية غير شيوعية . فاذا تعاقدنا مع الاتحاد السوفييتي او مع اية دولة شيوعية ، فلا يعني ذلك اننا اقتبسنا نظامها الاجتماعي وسرنا على خطتها السياسية . فنحن لا نتبع الا مصلحتنا القومية ، ولا نقيم في بلادنا من الانظمة الاجتماعية الا ما نراه مناسبا لحاجتها ، ومنشطا لانتاجها وانعاشها الاقتصادي العام .

وعدت من هامبورغ الى ميلانو وابرقت الى دمشق مستعلما عما اذا كان لم يطرا اي تعديل على برنامج السفر الى براغ ، فموسكو ، فجاءني الجواب بان الموعد لا يزال كما كان .

ووصل من دمشق السيد فاخر الكيالي في طريقه الى بلجيكا . ففاتحني بقضية الملك سعود والازمة التي حصلت بينه وبين الحكومة السورية على اثر التصريح الذي ادليت به لاحدى الجرائد بدمشق . ففي هذا الحديث هزأت بموقف الملك سعود وموقف الملك حسين ، وابنت انهما يعملان لمصلحة الاستعمار . وسافرد لهذا الموضوع فصلا خاصا اذكر فيه بالتفصيل تطور علاقات سورية مع المملكة العربية السعودية .

وبارحت ميلانو بعد ظهر ٢٣ تموز ، فوصلت الى مطار براغ في الساعة ٢٢ . وكان في استقبالي وزير التجارة الخارجية ، ورئيس اركان الحرب ، وعدد من الوزراء والسفراء ، والوزير الكيالي ، ورئيس اركان حرب الجيش السوري اللواء توفيق نظام الدين ومرافقوه العسكريون ، ووزيرنا المفوض السيد (؟) .

وكان الاستقبال رسميا ، اذ عزفت الموسيقى النشيدين الوطنيين السوري والتشكوسلوفاكي . وبعد ان استعرضت حرس

الشرف حسب الاصول ، بارحنا المطار الى فندق أكرون ، حيث تداولنا الامور واستمعت الى آخر اخبار الوطن .

وفي اليوم التالي اقام وزير التجارة الخارجية حفلة غداء على شرف الوفد في الفندق نفسه . فتعرفنا الى عدد من الوزراء وبحثنا معهم مبدئيا الشؤون التي نريد معالجتها . ثم تواعدنا على استكمال البحث مفصلا ، عند رجوعنا من موسكو .

وفي الساعة السابعة عشرة من ٢٤ تموز امتطينا متن الطائرة الروسية الجبارة من طراز (٤) وبارحنا براغ متوجهين الى موسكو . وهذه الطائرة هي اعظم طائرة نفاثة في العالم ، فيها ٧٢ مقعدا ، منها ١٦ مقعدا وثيرا والباقي كمقاعد الطائرات العادية . وتبلغ سرعة هذه الطائرة ١٠٠٠ كيلومتر في الساعة حتى علو ١٢٠٠٠ متر . وفعلا ، كان ارتفاع الطائرة في هذه السفرة على علو ١٠٥٠٠ متر ، وكان معدل السرعة ٨٠٥ كيلومترا في الساعة . والظريف فيها انها عندما ترتفع فوق اعلى طبقات الغيوم التي تسمى سيروس لا يشعر الانسان باي اهتزاز او بأي ضيق في النفس او بأي غثيان . ومهما كانت حالة الطقس ، فالطائرة ترتفع فوق مناطق العواصف وتسير في جو هادىء مشمس ، بينما الامطار والزوابع تجعل الطائرات الاخرى تهوج وتموج وترتفع وتسقط وتتعرض لاخطار كثيرة . وحقا ان اختراع هذه الطائرة دليل على عظمة الانتاج السوفييتي وتقدمه على انتاج اية دولة اخرى في العالم . اذ ان هذه الطائرة النفاثة بدأت تسير على الخطوط العادية منذ ١٩٥٦ ، بينما لن توضع الطائرات النفاثة المماثلة من انتاج الولايات المتحدة في السفر العادي الا في ١٩٦٠ .

وصولنا الى موسكو واستقبالنا في المطار

ووصلنا الى موسكو بعد ساعتين وربع الساعة من مبارحتنا براغ . وكان في استقبالنا في المطار وزير الدفاع جوكوف ، ونائب رئيس الوزراء كوزمين ، وعدد من الوزراء والسفراء ، وسفيرنا السيد جمال الفرا ، وموظفو السفارة السورية ، وكثير من الضباط والموظفين ، وفريق من الشبان السوريين الذين حضروا الى موسكو للاشتراك في مهرجانها . وبعد نزولنا من الطائرة ومصافحتنا المستقبلين ، صعدت مع وزير الدفاع الى منصة يعلوها العلمان السوري والسوفييتي . وعزفت الموسيقى النشيدين الوطنيين ، ثم استعرضت مع الوزير الجنود المصطفين وتعرفت باعضاء السلك السياسي العربي ، وبعد ان ودعنا المستقبلين ، اتجهنا الى الدار

المخصصة لاقامتنا بشارع تولستوي ، وهي دار اعدتها وزارة الخارجية للضيوف ، تحتوي عدة غرف للنوم ، وابهاء ، وغرف للطعام والسينما والبليارد . ووضعت هذه الدار لاضافتنا ، الوزير الكيالي وانا مع عقيلتي . اما الضباط ، فقد حلوا في فندق ستانسكايا ضيوفا على الحكومة السوفييتية .

واجتمعت فور وصولي الى دار الضيافة بالسفير سولود الذي كلفته وزارة الخارجية بمرافقتنا . وهو صديق قديم تولى مفوضية الاتحاد السوفييتي في دمشق في ١٩٤٤ ، ثم عين سفيرا في القاهرة ، حيث اجتمعت اليه في ١٩٥٥ وطلبت منه ، انا والزعيم شوكت شقير رئيس اركان الجيش السوري ، الاتصال بحكومته وابلاغها رغبتنا في شراء اسلحة روسية .

وقد سررت لاختيار السفير سولود مرافقا لوفدنا في موسكو، نظرا لمعرفتي بحبه لبلادنا ، ولأنسه ودماثة خلقه .

واوضح لي السفير سولود ان مباحثاتنا سيتولاها عن الجانب الروسي السيد كوسيغين ، نائب رئيس الوزراء ، وهو من الشبان المقدر لهم احتلال احسن المراكز في المستقبل . وخشيت ان يكون ذلك دليلا على عدم اهتمامهم بأمرنا ، فسألته لماذا لا يتولى المباحثات المارشال بولغانين او خروشوف ، فقال بأن البروتوكول لا يجيز لهما الاشتراك في مفاوضات لا يتولاها من الجانب الاخر من يعادلهما رتبة ، اي رئيس حكومة . واضاف قائلا ان الحكومة ، بتكليفها احد نواب رئيس الوزراء برئاسة الوفد الروسي — مع اننا انا والكيالي لا نعدو كوننا وزراء — تعدت البروتوكول ، لاظهار اهتمامها بنا .

وقد عجبت من تمسك هؤلاء القوم بهذه الامور التي نحن في سورية، لا نقيم لها وزنا. فرئيس الجمهورية عندنا يجتمع مع كل من ياتي من الخارج ويستقبله بنفسه ويعالج معه الامور ويتيم على شرفه المآدب .

وعلى اي حال ، لم اجد ما يوجب ابداء الملاحظة . لكنني اصررت على ضرورة الاجتماع الى الزعيمين المشار اليهما ، لموعد بالعمل على توفير الوقت المناسب .

زيارتي لكوسيغين وبياني في جلسة المباحثات الاولى

وبدات زياراتنا وابحاثنا في صباح اليوم التالي ، حيث زرنا نائب رئيس الوزراء السيد كوسيغين في مكتبه . وجرت العادة عندهم على ان يجلس المندوبون الى جانبي طاولة طويلة ، بحيث يحتل رئيس الوفد اول مقعد على احد الجانبين ويجلس الى جانبه مر افقوه،

بحسب مراتبهم . اما رئيس الوفد السوفييتي او اكبر اعضائه مقاما ، فيجلس امام هذا الوفد والى جانبه ، على التتابع ، سائر الحاضرين . ويأخذ المترجم مكانه على راس الطاولة ، كأنه يدير الجلسة .

وجرت العادة ايضا على ان توضع على الطاولة انواع المياه المعدنية والمشروبات والفواكه والحلويات والسجائر .

بدات الحديث بشكر الحكومة على ترحيبها وحسن استقبالها ، وقلت ان الامور التي نريد بحثها تتناول ناحيتين : الاولى اقتصادية ، والثانية عسكرية . ثم طلبت الموافقة على فصل الموضوعين وتأليف لجنتين نبحث كل ناحية على حدة . فأجاب كوسيغين بشكر الوفد على زيارته،واطنب في مديح موقف سورية الحر،واعلن عن استعداد حكومته لبحث الامور التي نريدها ، بكل عناية . ثم وافقنا على ان يتولى الضباط بحث الشؤون العسكرية مع وزارة الدفاع ، وان نتولى ، انا والوزير الكيالي والسفير جمال الفرا ، الناحية الاقتصادية مع كوسيغين والسيد نيكتين ، نائب رئيس المجلس الاقتصادي الخاص .

ثم شرحت غرضنا من المجيء الى موسكو وقلت : « كلفنا رئيس الحكومة السورية ان نحمل اليكم الشكر والامتنان العظيمين على الموقف الودي الذي وقفته حكومة الاتحاد السوفييتي من القضايا العربية بصورة عامة ومن المسائل المتعلقة بسورية على وجه خاص . فهذا الموقف يجعل كل مواطن سوري وكل فرد عربي يشعر بروح المنة والاخوة تجاه شعب الاتحاد السوفييتي ، كما يجعله مدينا له بالوفاء والشكران . وهو لا ينسى الايام السود التي مرت بها الامة العربية ابان ازمة قناة السويس ، ولا ينسى الدعم القوي الذي لقيه من جانب حكومة الاتحاد السوفييتي ، وخاصة رئيسها الكبير المارشال بولغانين ، هذا الدعم والتأييد اللذان نعتقد انهما كانا العنصرين الاساسيين في ردع الاستعمار عن غاياته ، وهي ضرب الفكرة العربية ، والتطويح بالحكومات العربية الحرة ، والاستيلاء على الشرق الاوسط . واننا لفخورون بحمل هذه الرسالة الاخوية اليكم ، معبرين فيها عن شكر حكومتنا وشكرنا الخاص . والى جانب رسالة الشكر هذه ، كلفتنا الحكومة السورية بأن نوضح لكم الموقف في الشرق الاوسط حاليا، وبصورة خاصة في سورية،سواء من حيث السياسة العامة او من حيث الدفاع عن كياننا او من حيث الوضع

الاقتصادي والمالي عندنا :

« ترتكز سياسة الحكومة السورية الحاضرة ، والى جانبها الحكومة المصرية ، على مقاومة الاستعمار والصهيونية والدفاع عن كياننا واستقلالنا وحريتنا وسلامة اراضينا تجاه من يقصد بنا الشر . وتلاقي الحكومة السورية الحالية ، بصورة خاصة ، ضغطا شديد الفعالية ، رغم اعلانها عن التزامها بسياسة الحياد الايجابي في موقفها الخارجي . اذ ان الدول الاستعمارية تعتبر هذه خطة معاكسة لمطامحها في الشرق ، وهي لا تألو جهدا في السعي للاطاحة بهذه الحكومة واستبدالها بحكومة تعدل سياسة سورية الخارجية، كما حصل في الاردن مثلا .

« وقد سعى الاستعمار للوصول الى اغراضه هذه بطرق شتى ، منها المؤامرات الداخلية وبث الجواسيس والجناة لارتكاب اغتيالات ضد بعض الشخصيات السياسية . لكنه خاب كل مرة ، بفضل العيون الساهرة على الامن ، والاحكام الشديدة الصادرة بحق المتآمرين .

« والى جانب هـــذه الانواع من الوسائل التدميرية ، بث الاستعمار جماعاته لنشر الذعـــر في الاسواق التجارية والاوساط الاقتصادية،مظهرا الخطر الذي يهدد سورية من سد ابواب التصدير امام منتوجاتها الزراعية والصناعية ، ومن الكساد الذي سوف يعم الاسواق من جراء ذلك .

« كما اوعز بمزاحمة اسعار المحصولات الزراعية السورية في الاسواق الخارجية ، فضاعت علينا فرص عديدة لم نتمكن من استثمارها لتصدير القمح . كما اوعز الى بعض الحكومات الاوروبية بعرقلة شراء هذه المحصولات .

« واننا لا نزال ننتظر نتائج التصريح الذي تلقته سورية من حكومة الاتحـــاد السوفييتي بأنها اوعزت الى الدول الاوروبية الشرقية بالاقدام على شراء القمح السوري . والحكومة السورية غير آبهة لهـــذه المشاكسات . وهي سائرة قدما في سياستها ، رغم كل هذه العراقيل . ولا يسعنا الا التصريح باننا لا نظن ان الدول الغربية سوف تعـــاود بنفسها الى سياسة الهجوم المباشر على سورية ، لكننا لا نستطيع ان نطمئن الى موقف اسرائيل التي هي في الواقع آلة صماء يحركها الاميركيون كما يشاؤون . ولذلك ، فاننا سائرون قدما في زيادة تسليح الجيش السوري بما يجعله قادرا

على الدفاع عن الاراضي السورية تجاه اية محاولة صهيونية . واننا ننتهز هذه الفرصة لنشكر لحكومة الاتحاد السوفييتي فضلها في بذل المعونة الطبية ، كبيعنا معدات عسكرية كان لها الشأن الاعظم في مناعة الجيش السوري .

« ان سورية ، رغبة منها في الدفاع عن كيانها وحريتها ، تتكبد نفقات لا تتناسب في الواقع مع امكاناتها المالية . فقد بلغت قيمة المعدات الحربية التي تعاقدنا عليها والاموال المخصصة للجيش في ١٩٥٦ نحو ٥٥٠ مليون ليرة سورية ، اي ما يعادل ثلث الدخل القومي . وبلغ هذا الرقم في العام الحالي ٢٣٠ مليون ليرة سورية ، في حين ان سائر ابواب الميزانية العادية السنوية لا تزيد عن ٧٠٠ مليون ليرة سورية .

« وقد انفق في هذا السبيل جميع المدخر من الاموال الاحتياطية ، لكن اثمان المشتريات من الاسلحة والمعدات بقيت دينا يتوجب علينا تسديده في سنين قليلة . وتلقت الحكومة من وزارة المالية تقريرا ماليا يوضح الصعاب التي سوف تلاقيها الخزينة بسبب الديون الكثيرة الناشئة عن صفقات الاسلحة ، مما يجعل هذه الخزينة تنوء تحت ثقل هذه المستحقات ، كما انها توقفت عن الانفاق على المشاريع العمرانية (المائية والزراعية وغيرها) الملحوظة في الميزانية الاستثنائية .

« ولا شك في انكم تدركون ان البلاد لا تستطيع الاكتفاء بتسليح جيشها والاستغناء عن المشاريع التي تدر على الخزينة موارد مالية كبيرة وعلى الاقتصاد السوري الخير العميم .

« كما اننا نلحظ ان الدعاية الاجنبية المبيتة بدات الان تسعى لزعزعة ثقة المواطنين بحسن اتجاه السياسة الخارجية التي تنتهجها الحكومة . وذهبت الجرائد المأجورة تعمل على بث روح الذعر في النفوس ، مقارنة بين الشدة التي يعانيها الاقتصاد السوري والميزانية السورية وبين الرخاء الذي يعيش فيه العراق وبعض الدول العربية . وهي تعمل على اظهار هذا الفرق كأنه ناتج عن سياسة سورية الحيادية الحالية وعن انتهاج العراق وغيره سياسة التفاهم مع الامريكيين ، وفق مبدأ ايزنهاور والمساعدات المالية .

« والحكومة السورية العالمة بالاغراض المبيتة التي تنطوي عليها هذه الدعايات لا تتأثر بها ، بل تسير بخطى ثابتة في اتجاهها

السياسي الحر .

« على ان الحكومة السورية تخشى ان تتسع دائرة الدعاية الاجنبية ، فتصل الى غرضها بتحول الراي العام الساذج والبريء عن مساندة السياسة السورية المتحررة ، لا سيما اذا اضطرت الحكومة الى فرض ضرائب ثقيلة لمواجهة الازمة المالية . وهكذا تستثمر الدعايات الاجنبية المبيتة هذا الامر ، فتضع الحكومة امام صعوبات تضعضع مركزها ، مما يحملها اما على التوقف عن الدفع ، واما على الانسحاب . فتاتي بعدها حكومة تبدل من الاتجاه السياسي السليم الحاضر ، فتدخل سورية في منظمة جديدة يحاول الغرب ، منذ مدة ، الوصول الى اقامتها تغطية لمآربه الاستعمارية.

الحلول المؤدية الى مقاومه الاستعمار

« والحكومة السورية ، امام هذه المشاكل ، تخشى تحول الوضع في الشرق الاوسط الى ما لا يتلاءم مع الرغبة في حفظ السلام والاستقرار في هذه المنطقة الدقيقة .

« ونحن نرى ان الحلول المؤدية الى مقاومة المساعي الاستعمارية هي :

« اولا — الاستمرار في تقوية الجيش السوري ومده بما يلزمه من معدات وابنية للثكنات والمستودعات والمستشفيات وغير ذلك .

« ثانيا — القيام بالمشاريع العمرانية التي تزيد الدخل القومي وتزيد رفاهية ابناء الشعب .

« ثالثا — العمل على فتح ابواب الاسواق الخارجية لتتمكن سورية من تصدير منتوجاتها .

ولا بد لنا لتحقيق هذه الحلول من الاعتماد على مؤازرة الاتحاد السوفييتي في الامور الآتية :

« ١ — اطالة امد الاستحقاقات (صفقات الاسلحة الروسية والتشيكية والبولونية) الى عشر سنوات .

« ٢ — تنفيذ المشاريع العمرانية (سكك حديدية) : سدود وغيرها ، بالاتفاق على انشائها بالتقسيط .

« ٣ — تنفيذ مشاريع ابنية الجيش بالتعاقد على التسديد مقسطا .

« ٤ — مساعدة الحكومة السورية في التبادل التجاري مع بلاد شرق اوروبا، وخاصة في بيع محصولاتها الزراعية. فاذا وافقت حكومة الاتحاد السوفييتي على المبادىء العامة عملنا على دراسة

التفاصيل بواسطة خبراء .

« وفي الختام ، اود ان اقول ان سورية تقف تجاه التهديدات والمغريات موقفا صامدا ، لا تتراجع عنه مطلقا . وهي تعتمد على الصداقة الروسية ـــ العربية للذود عن الحريات العامة في جميع اقطار العالم ، والدفاع عن السلام ، والوقوف في وجه الاستعمار واغراضه . »

فأجاب السيد كوسيغين بأنه ، مع تصريحه المبدئي برغبة حكومته في تقديم ما يمكن من المساعدة ، يرى ان لا بد من دراسة المواضيع مفصلا ليستطاع اعطاء الجواب القطعي . فقلت له اننا لم نرفق معنا خبراء واخصائيين ، بل اتينا لبحث الامر من حيث المبدأ . الا انه يمكننا اعطاؤكم بيانا مقتضبا عن المشاريع التي نرغب في تحقيقها . وسرد الوزير الكيالي ما لديه من البيانات مع بعض الاحصاءات التي استصحبها معه .

جواب كوسيغين

ثم اجتمعنا اجتماعا ثانيا مع هيئة مؤلفة برئاسة السيد نيكتين في وزارة العلاقات التجارية الخارجية واستأنفنا ابحاثنا المبدئية . وكان الفريق الآخر يوجه اسئلة فنية عديدة لم نكن قادرين على الاجابة عليها ، فاكتفينا بتعداد المشاريع . وطلب الوفد الروسي مهلة خمسة ايام لدرس الموضوع ، ثم يقدمون بعدها جوابهم .

وكان وفدنا العسكري في اثناء ذلك يبحث مع وفد من الخبراء العسكريين ما جاء من اجله بشأن صفقات الاسلحة والذخائر والغرض من انشاء الابنية العسكرية . ولم اشترك في اجتماعاتهم .

وابلغنا السفير سولود انهم اعدوا لنا رحلة للتفرج على بعض المدن الروسية وبعض المشاريع الكبرى ، واقترحوا ان نذهب الى طشقند ، ثم الى ستالينغراد ، ثم الى كييف ، فلنينغراد . فطلبت ان يستغنى عن الرحلة الطويلة الى طشقند ، فوافقوا وخصصوا لنا طائرة خاصة من نوع اليوشن اعدت خصيصا للرحلات الرسمية . وهي تحتوي بهوين ، في كل واحد منهما عدة مقاعد وثيرة وطاولة . وهي تسع ثمانية ركاب فقط . وفي الطائرتين اللتين وضعتا تحت تصرفنا ، كنت مع زوجتي ، والكيالي وزوجته ، وفخري البارودي ـــ الذي التقيناه صدفة في موسكو ، فاحببت ان يرافقنا في هذه الرحلة الاستطلاعية ـــ والسيد نيكتين ومضيفة . اما سائر المرافقين ، وهم سولود وجنرال وموظفون من الخارجية ومترجمون ، فرافقونا في الطائرة الثانية .

وبارحنا موسكو صباحا ، فوصلنا ستالنغراد قبل الظهر . ثم زرنا امين البلد وتجولنا في شوارع هذه المدينة التي هدمت عن بكرة ابيها ايام هجوم الجيش الالماني في ١٩٤٢ ، بحيث لم يبق منها سوى بناية واحدة ابقيت على ما هي عليه من آثار الضرب بالقنابل ، كذكرى دفاع المدينة الباسل .

وبعد الظهر ركبنا باخرة نهرية سارت بنا في نهر الفولغا العظيم الى احد السدود الكبرى التي ينشئوها الاتحاد السوفييتي لتوليد الكهرباء . وهذا السد اعد لتركيب ٢٢ توربينا مائيا يولد كل واحد منها ١٠٠٫٠٠٠ كيلووات. وكان عدد العمال المشتغلين بهذا العمل الجبار يقارب خمسين الفا ، انشئت من اجل سكناهم مدينة خاصة بالقرب من السد . واعجبنا بمشاهدة احدى الفوهات الاربع والاربعين التي ستمر فيها المياه لتحريك التوربين الواحد (بمعدل فوهتين لكل توربين) فاذا هي معدة لمرور سبعمائة متر في الثانية . وكان اعجابنا ناشئا عن مقارنة كمية الماء هذه بما يجري في نهر بردى بدمشق ، اي بمعدل ثلاثة امتار في الثانية .

وبالرغم من عدم ارتفاع منسوب المياه الجديد بعد اتمام انجاز السد ، وهو ثلاثة امتار ، فان البحيرة — او بالاحرى البحر — الذي سيشكل قبل السد سيبلغ طوله ستمائة كيلومتر بعرض اربعين كيلومترا .

وذكر لنا مرافقونا ان هذا السد هو احد السدود السبعة التي بدأ انشاؤها . وقد تم بعضها وسيتم البعض الآخر في غضون سنتين .

ثم زرنا احد معامل صنع الجرارات الزراعية . وركب الكيالي على احداها وقادها من المعمل بين تصفيق العمال والعاملات الذين كانوا يحيون العرب وسورية .

وفي اليوم التالي زرنا قبر الجندي المجهول على قمة احدى الروابي المطلة على ستالنغراد ، حيث وقعت مصادمات دموية عنيفة بين الروس والالمان ، قتل فيها مئات الالوف من الجنود . وقد اعيد بناء المدينة على الطراز الروسي العصري الذي يتالف من شوارع عريضة جدا ، في وسطها حدائق تحف بها على الجانبين ابنية للسكنى لا يزيد ارتفاعها عن ثلاثين مترا .

وبعد تناول الغداء ودعنا المحتفلين بنا وركبنا الطائرة الى مدينة سوتشي الواقعة على الضفة الشرقية للبحر الاسود . فوصلنا

طشقند ، ثم الى ستالينغراد ، ثم الى كييف ، فلنينغراد . فطلبت ان هذه المسافة بالسيارات ، في طريق من اجمل الطرق . وهي تخترق الغابات البديعة على التلال الموازية لشاطىء البحر .

وفي سوتشي مياه معدنية كبريتية . وهـــي تعتبر من اجمل المدن الاصطيافية التي يرتادها الروس لقضاء عطلتهم الصيفية . فيحلون ضيوفا في البنايات العديدة التي يسمونها مصحات ، وهي بالاحرى فنادق ، وذلك دون اجرة . وقد خصصت كل بناية لفريق من الناس . فثمة مصح السكك الحديدية مثلا ، حيث ينزل الموظفون والعمال المشتغلون في هذه السكك . كما ان ثمـــة مصحا للجيش ومصحا للبحرية ، وهلم جرا .

وقد اضافونا في دارة كبيرة خصصت لضيوف الحكومة . ولهذه الدارة على شاطىء البحر جزء خاص لا يســـــتحم فيه الا هؤلاء الضيوف . والشـــــاطىء طويل جدا ـــ ربما يبلغ طوله عشرين كيلومترا ـــ لكنه غير رملي . فالاحجـــــار الكروية الملونة تزعج المستحمين لصعوبة الجلوس عليها .

وزرنا الحمامات المعدنية ، فاذا هي مجهزة بأحدث المعدات والادوات الطبية ، لا سيما ما اختص منها بأمراض الانف والحلق . وتفرجنا ليلا على سيرك ، فشاهدنا الالعاب البهلوانية والجمناستيكية الرائعة ، وحركات الحيوانات المروضة ترويضا عجيبا .

وفي اليوم التالي ركبنا الطائرة وتوجهنا الى كييف ، عاصمة اوكرانيا . فاستقبلنا في المطار وزير الخارجية وكبار القوم ، ثم تناولنا طعام الغداء في دار الضيافة التي كانت في عهد القياصرة قصرا لاحد اغنياء المدينة . ثم قمنا بنزهة في المدينة وضواحيها ، فوجدناها من اجمل المدن الروسية .

واكملنا رحلتنا الى لنينغراد بالطائرة ، فوصلنا اليها مساء ، اي قبل ان يصبح الظــــلام دامسا ، وكانت الساعة تشير الى العاشرة . واضافونا هناك في احد قصور الضيافة الذي كان ايضا لاحد الامراء الاغنياء . وهو قصر جميل جدا على شاطىء نهر النرفا .

وصباح اليوم التالي زرنا احد المعامل الكبرى، الذي كان قبل الحرب العالمية الثانية ملكا لشركة سيمنس الالمانية ، والذي تصنع فيه الآن العنفات المائية المعظيمة المعدة لسد ستالنغراد ، وكل منها يولد ١٠٠ر٠٠٠ كيلووات/ساعة . ثم زرنا القصر القيصري الذي كان يسمى « قصر الشتاء » ، ويسمى الآن متحف ارميتاج . وهو

يعتبر من اجمل قصور العالم . والمتحف يحوي اروع الصور الزيتية لمشاهير الرسامين العالميين . ويأسف القائمون عليه الآن على الكثير من روائع الفن التي باعتها الحكومة السوفييتية في ١٩٣٠ من الامريكيين الاثرياء ، ثم انتقلت فيما بعد الى المتحف الوطني بواشنطن .

ولم استطع ، لعجزي عن السير كثيرا ، مشاهدة جميع الابهاء المليئة بالآثار النفيسة ، من تابلويات وقطع اثرية اخرى . فاكتفيت بما قدرت على زيارته من الابهاء ، مستعينا بالكرسي النقال الذي كنت اجلس عليه ، كلما شعرت بالتعب الشديد .

وبعد الظهر ، ذهبنا الى القصر الذي شاده بطرس الاكبر ، غربي لننغراد . وقد احرقه الالمان وبدأ الروس الآن باصلاحه . ولم نستطع زيارته ، فاكتفينا بالنزهة في الحدائق الغناء المحيطة به ، ومشاهدة نوافير الماء البديعة . ومن الامور الغريبة التي شاهدناها في الحديقة مقعد خشبي تحت شجرة ، ما ان يجلس الانسان فيه ، حتى تتساقط عليه المياه من تلك الشجرة . فيهرب بين ضحك المتفرجين ودعابتهم .

وبعد ذلك ذهبنا الى زيارة المدينه الصغيرة المسماة الآن باسم بوشكين ، الشاعر الروسي الشهير . وكانت قبلا تسمى بـ (؟) وفي هذه المدينة قصر كان يسكنه القياصرة ، وآخرهم نيقولا الثاني الذي ذهب منه الى الجبهة الحربية ، ثم اعلنت الثورة وهو هنالك . فكتب تنازله عن العرش لشقيقه ميشيل . لكن هذا الاخير رفض التاج ، فانتهى بذلك عهد القيصرية في روسيا .

وكان القصر تهدم عند حصار لننغراد في الحرب العالمية الثانية ، وحتى الآن لم يشرع باصلاحه . الا ان الحدائق الواسعة المحيطة به من اجمل حدائق العالم . وهي تحوي بحيرة من الماء كبيرة جدا . اما الازهار فيها فيعتنى بها كل العناية .

وزرنا قصر البلدية ، وهو اجمل بناية خصصت لبلدية في العالم . وكان قصرا لشقيقة احد القياصرة . وهو يحوي من الابهاء المفروشة بانواع الرخام الملون ما يخلب النظر .

وفي المساء توجهنا الى محطة السكك الحديدية ، حيث امتطينا القطار الليلي متوجهين الى موسكو . وفي هذا القطار نحو خمس وعشرين عربة نوم تفوق اجمل العربات الاوروبية ، من حيث التزيين والرفاه . الا ان سير القطار بطيء ، بحيث قطعنا المسافة بين

لننغراد وموسكو ، وهي ٦٠٠ كيلومتر ، في عشر ساعات .

وهكذا انتهت رحلتنا في الاتحاد السوفييتي ، وعدنا الى العاصمة لنتابع مباحثاتنا مع اركان الحكومة .

وعقدنا مع السيد كوسيفين ورفاقه عدة اجتماعات تناولنا فيها بحث المواضيع التي يهمنا ايجاد حل لها . فوافقوا على تصدير المنسوجات القطنية والغزل القطني من سورية الى الاتحاد السوفييتي ، كما وافقوا مبدئيا على موضوع المشاريع الاقتصادية التي طلبنا مساعدتهم المالية والفنية للقيام بها ، على ان يذكر بالتفصيل عدد المشاريع ، في البيان المشترك الذي سنوقعه قبل مغادرتنا موسكو . واعلمونا بأن تسديد قيمة هذه المساعدات المالية سيكون في غضون ١٢ عاما ، وبفائدة ٥ر٢ ٪

وبدانا ببحث صيغة البيان المشترك ، فطلبوا ان يضعوا مشروعا يعرضونه علينا . فكان ذلك . ثم اجرينا تعديلات في المشروع ، على حسب ما رأيناه متفقا مع مصلحتنا ، فوافقوا عليها. ثم ترجمناه الى اللغة الافرنسية ، تمهيدا لتوقيعه .

وفي مساء الاول من تموز دعينا الى قصر الكرملين لحضور الحفلة المقامة على شرف ملك الافغان ، فوقفنا في البهو الكبير المخصص لاعضاء السلك السياسي . ولما دخل الملك مع خروشوف وبولغانين ، طافوا على الحاضرين الواقفين في اطراف البهو الاربعة وحيوهم . وتحادث الملك مع بعضهم ، ثم دخل الجميع الى القاعة الكبرى ، حيث وقف سائر المدعوين . فذهبنا نتحادث معهم ونتعرف اليهم . وقدمني سفيرنا السيد جمال الفرا الى الملك ، فصافحني وتحدث معي عن سورية واظهر اعجابه بها وبنهضتها . واستمرت الحفلة اكثر من ساعتين ، القيت فيها الخطب الرسمية . ثم تناول المدعوون الطعام وانصرفوا .

خطابي في الحفلة الــوداعية

وفي مساء الخامس من تموز اقمنا في فندق « سوفتيسكايا » حفلة وداعية على شرف الحكومة السوفييتية حضرها بولغانين وخروشوف وجوكوف ، وزير الدفاع ، وسائر الوزراء ، واعضاء السلك السياسي ، وكبار الموظفين . والقيت خطابا مكتوبا هذا نصـه : ـ

« يسعدني ان ارحب ، باسم وفد الحكومة السورية الى الاتحاد السوفييتي وباسمي ، بحضرات الذين لبوا دعوتنا الى هذه الحفلة الوداعية التي حرصنا على ان تضم ، الى جانب اصدقائنا

السوفييتيين ، نخبة مختارة من ممثلي الدول الشقيقة والصديقة .

« اننا نحمل تحية سورية، تحية الود والسلام ـــ نحملها بأيد مفتوحة باخلاص للذين يرغبون في هذا الود والسلام عن نية سليمة خالصة من اي غرض . فنحن نؤمن بالود والسلام بين الشعوب ، ونسعى لاداء قسطنا من العمل في سبيلهما .

« تحية سورية للدولة الصديقة التي فتحت لنا ابواب مصانعها الحربية ومكنتنا من الحصول على اسباب الدفاع عن انفسنا ، فيما كانت الدول الاخرى تتمنع عن ذلك . فلم يعد مستغربا ان نفتح للدولة الصديقة قلوبنا ، وان نمد لها يد الصداقة ، وان نسوق اليها شكرنا العميق واعترافنا بالجميل .

« نحن نحمل اليكم رسالة الشكر هذه على موقفكم النبيل ، ايها الاخوان السوفييتيون، في تلك الايام الحالكة التي بلغ فيها موقف العرب من الحراجة حدا قصيا ، حين كان اصحاب النوايا السيئة ينفذون الخطط الاستعمارية التي دبروها للقضاء على العروبة وللاستيلاء على الشرق الاوسط العربي ـــ ذلك الموقف الحاسم الذي انقذنا من الوقوع في ايدي المعتدين اصحاب الاساطيل والجيوش القوية ، فانتصر الحق بفضل دفاعكم عنه ورجع الطامعون بالخزي والعار ، يتراشقون التهم ويكيلون الشتائم ، بعضهم لبعض .

« ومع ذلك ، فلا يزال العرب يعانون الامرين من جراء وقوفهم في وجه الاستعمار ، وكفاحهم المستميت ضد من يريد ايقاعهم في احابيله . وقد رفضت سورية دخول حلف بغداد ، كما رفضت الانتساب لمنظمة الدفاع المشترك وعارضت المشاريع المختلفة الاسماء وامتنعت عن قبول المساعدات المالية التي لا تمنح ، في الواقع ، الا بشروط علنية او سرية تتعارض مع مبادىء الاستقلال .

« وكان رفضنا هذه الاحلاف والمشاريع عائدا الى اننا نأبى ان نكون مطية لمصالح بعض الدول،ولاننا لا نقبل ان نعود الى ما كنا عليه قبل تحقيق استقلالنا ، ولاننا نعتقد ان اعداء العرب الوحيدين في العالم هم المستعمرون والصهيونيون . فكيف نمد يدنا للاتفاق مع اعدائنا او مع من يدعمهم ويمدهم بالمال والسلاح ؟

« اننا نناهض الادعاء بأن ثمة فراغا في الشرق الاوسط . فبعد ان اضطرت دول الانتداب الى الانسحاب منه ، ملأنا نحن هذا الفراغ السياسي والاقتصادي باستقلالنا وتمتعنا بحريتنا التي سلبت منا لقرون عديدة خلت . فعلى الدول ذات المطامع المعروفة

ان تصرف نظرها عن اعادة السعي للتمتع بنفوذ زال ، وعن العمل للحصول على نفوذ جديد .

« فليس في الشرق الاوسط مكان للمستعمر ، او اداة للاستعمار ، او صديق للاستعمار . بل ان فيه افئدة وصدورا مفتوحة للصداقة البريئة المغيثة عند الشدائد ، المدافعة عن حقوق الشعب وحريته فحسب .

« نحن واياكم ، ايها الاخوان السوفييتيون ، ننشد السلام في العالم ونعمل ما بوسعنا لنشره وتوطيده . لكننا نقاوم من يفهم السلام نظاما يتسلط فيه القوي على الضعيف ، فيملي عليه ارادته وفقا لمصالحه الخاصة . فنحن نفهم السلام نظاما يتمتع فيه كل شعب بحريته كاملة ، وباستقلاله ناجزا ، ويتعايش مع الشعوب الاخرى على قدم المساواة والواجبات . وهذا ما اقره مؤتمر باندونغ الذي نتمسك بمقرراته ومبادئه ، ونحيي المشتركين فيه والمؤيدين له .

« ونحن واياكم مضطرون لزيادة قوانا الدفاعية ، لان الآخرين يعملون من جهتهم على زيادة قواهم للفتك بنا . ولا يرضيهم تسلحنا ، لان مناعة دفاعنا تحول دون توسعهم الجغرافي ، وبسط نفوذهم ، واستغلال ثروات بلادنا ، وحجز حريتنا .

« واستطيع ان اصرح ، باسم الحكومة السورية ، باننا عازمون على الدفاع عن بلادنا وحريتنا تجاه كل من يعتدي علينا عسكريا او اقتصاديا او سياسيا ، وباننا سوف نقاوم — ولنا بمقاومتكم المجيدة خير درس وعبرة — حتى آخر قطرة من دمائنا ، معتمدين على ايماننا بحقنا ، وعلى قوانا الذاتية ، وعلى تضامن الشعوب الحرة التي ترفض ان تعود الدنيا مرتعا لخيول الغزاة الطامعين .

« وسوف نعمل معكم ومع الشعوب الحرة الاخرى في سبيل استتباب السلام في العالم ، وتوطيد دعائمه على اسس صحيحة ومتينة تبعث الاطمئنان في الشعوب من خطر الحروب ، وتهب الهناء ورغد العيش لكل فرد من افراد تلك الشعوب .

« هذا الاطمئنان وذلك الهناء بوطدهما جيش قوي منيع الجانب ، واقتصاد متين تستثمر فيه مرافق البلاد العامة ، الصناعية والزراعية والتجارية ، بما يضمن الاستقلال والحرية .

« وعلى ذلك ، فقد اتينا اليكم مستهدفين تمتين عرى التعاون

في الحقول التي ذكرتها ، وتوسيع مدى التبادل التجاري بين قطرينا . وقد لقينا عندكم التفهم العميق لوضعنا من جميع اوجهه ، ورغبة صادقة في التعاون البريء من النوايا السيئة . واننا موقنون بأن هذا التعاون الصحيح سوف يصلح حالنا ، ويبعد عنا كابوس الضغط الاقتصادي الخارجي الذي بدأ يرافق الضغط السياسي الشديد .

« وقد زرنا بعض انحاء الاتحاد السوفييتي وشاهدنا ، باعجاب ، المجهود العظيم الذي تبذلونه في الميدان الصناعي والزراعي ، فضاعف ذلك ايماننا بمناعتكم في جميع الحقول . ولقينا في موسكو ، وفي سائر المدن التي زرناها ، الحفاوة الكريمة التى تفوق تكريم الضيف الصديق . بل هي تعادل الترحاب الصميمي بين افراد عائلة واحدة ، تجمعها المحبة والمصالح المنسجمة .

« ولم تقتصر هذه الحفاوة على اشخاصنا فحسب ، بل شملت جميع افراد الوفود العربية المشتركة في مهرجان موسكو ، بحيث كنا كلنا نحسب انفسنا في بلادنا وبين اهلنا ، فبوركت لكم هذه العواطف الكريمة التي نقابلها بالشكر والامتنان .

« واني اطلب منكم المعذرة لاطالتي عليكم كلامي . لكنها كلمة حق ، حرصت على التصريح بها ، وكلمة شكر ومنّة اردت تسجيلها للشعب السوفييتي الصديق الكريم .

« والآن ارجوكم ان ترفعوا كؤوسكم لنشرب نخب الاتحاد السوفييتي وشعوبه الكريمة وقادته المخلصين لوطنهم .

« ونخب الجيش السوفييتي المجيد .

« ونخب الصداقة السوفييتية ـــ السورية التي لن تفصم عراهـــا .

« ونخب الصداقة والسلام . »

واجابني السيد كوسيغين بخطاب مكتوب لم يتطرق فيه الى ما جاء في خطابي في شأن الاستعمار ومقاومته .

وخلال تناول الطعام ، اعتلى المسرح فريق من الموسيقيين السوريين الذين كانوا حضروا الى موسكو ، لمناسبة الاحتفالات التي كانت مقامة فيها ، وانشدوا بعض الاناشيد الوطنية ذات الطابع السوري الخاص ، فلقيت استحسان المستمعين . وكان الصفاء مخيما على المدعوين والداعين ، يتبادلون الانخاب بكل حماسة ، وفقا لما الفه الروس .

خطابي في حفلة توقيع الاتفاق السوري ــ السوفييتي

وفي اليوم التالي دعينا الى احد القصور المتخذ دارا للاستقبالات المهمة ، وكان في الماضي لأحد الامراء . وعند اكتمال عدد المدعوين ، توجهنا الى القاعة التي اعدت فيها مائدة عليها نسختان من البيان المشترك . فجلست في احد المقعدين وجلس السيد كوسيغين في المقعد الآخر . وبعد ان تبادلنا التواقيع تحت اضواء المصورين ، دوت القاعة بالتصفيق . ثم تصافحنا مهنئين مغتبطين ، وسرنا الى مقصف فاخر . فألقى السيد كوسيغين خطابا حماسيا ندد فيه بالاستعمار ، ذي المطامع في الشرق . واعلن ان الاتحاد السوفييتي يدافع عن الحرية والسلام في العالم ويقدم للدول المحتاجة المساعدات الاقتصادية ، بدون اي شرط او الزام .

فأجبته بخطاب ارتجالي ، هذا نصه المترجم ، كما سجله الموظف السوري :

« حضرة رئيس مجلس الوزراء

« حضرة نائب رئيس مجلس الوزراء

« سيداتي سادتي .

« يسعدني ان ابدا كلمتي بالشكر العميق لحضرة نائب رئيس مجلس الوزراء على هذه الحفلة الكريمة التي دعانا اليها ومكننا من الاجتماع الى نخبة ممتازة من الوزراء واعضاء السلك السياسي والهيئات والشخصيات الاخرى . ولو كنت اريد ان القي كلمة مطولة هذه الليلة لاخذت من حضرة نائب رئيس الوزراء الخطاب الذي كتبه وتلاه علينا وتلوته انا بنفسي ، لانه هو نفس الكلام الذي يجول في صدري وفي صدر اخواننا العرب اينما كانوا . ولذلك ، فانني اكتفي بكلمات قليلة تعليقا عليه .

« منذ ان جلا الاستعمار عن بلادنا ، والحكومات العربية تعمل على دعم هذا الاستقلال ، وعلى احياء اقتصادها لتتمكن من ان تعيش وان تحمي هذا الاستقلال .

« لكن هذا الاقتصاد ، او بالاحرى هذه السياسة الاقتصادية الحرة ، كانت تتصادم مع السياسة الاقتصادية لبعض الدول الاخرى . لان المصالح كانت متعاكسة . لذلك عشنا هذه المدة الطويلة باقتصاد ناقص ، مع ان امكانياتنا في بلادنا عظيمة جدا ، كما يعلم الجميع . لكننا فضلنا ان نبقى ، كما نحن ، في عجز اقتصادي نسبي على ان نقبل مساعدات اقتصادية او مالية مشروطة او تنطوي على شروط غير معلنة ــ شروط تمس بكرامتنا القومية

وباستقلالنا وبحريتنا . وظل الامر كذلك ، الى ان قيض الله لنا دولة صديقة تفهمت وضعنا الحقيقي على ما هو عليه . ولم يرافق تفهمها هذا طمع في اقتصادياتنا او ثروتنا، او رغبة في التأثير على سياستنا الخارجية باسم المساعدة الاقتصادية . فكانت فاتحة ادت الى مباحثات ومفاوضات اجريناها منذ وصول الوفد السوري الى عاصمة الاتحاد السوفييتي . وان المبادىء التي اتفقنا عليها في الحقل الاقتصادي هي المبادىء الحرة التي تقبل اية دولة كبيرة او صغيرة ان تتعاقد على اسسها مع اية دولة اخرى . ذلك لانها تنطوي على مساعدة سخية وبريئة وخالصة من اي طمع ، مساعدة الصديق للصديق ، مساعدة الاخ للاخ ، لانقاذه من حالة مالية صعبة وفتح المجال امامه لاستثمار ثروته وموارده . فهذه الاتفاقات جرت على هذه الاسس ، مهما تكن التفسيرات التي قد تعطى لها . انها اتفاقات اقتصادية في مصلحة البلدين ، سورية والاتحاد السوفييتي . وهي سوف تقضي ، كما اعتقد ، على الحالة الاقتصادية غير الحسنة الموجودة في هذا القسم من الشرق الادنى . وبلغ من سوء الحالة اننا لم نجد بداً من اللجوء الى الاتحاد السوفييتي الصديق ، موضحين له حقيقة الوضع في سورية ، ومبينين وطاة الضغط الاقتصادي الذي بدأنا نشعر بأثره ، بعد ان كنا لا نشعر الا بالضغط السياسي .

« اننا متيقنون انه بفضل هذه المؤازرة الفنية والاقتصادية القائمة على هذا الاساس الذي ليس فيه الا منفعة متبادلة بريئة من اي غرض او اي غاية غير حسنة ، سوف تعزز اقتصادياتنا على نحو لا يبقى في الشرق مجال للخوف بأن هناك امة متأخرة تحتاج الى مساعدة . وهكذا يقضى على كل الدعايات السيئة التي كان يراد الاستفادة منها لمصالح خاصة ، فتنعم سورية ، على ما نعتقد ، بنعم الحياة الاقتصادية الرغيدة — هذه النعم التي سوف يشعر بها كل مواطن سوري اينما كان قاطنا ، وايما كان عمله ، سواء في الزراعة او الاقتصاد او الصناعة او التجارة او اي ناحية من نواحي الحياة .

« لقد عزمنا على انتهاج هذه السياسة مع الاتحاد السوفييتي ، فوافق على ذلك .

« وستنعدم كل المحاولات التي كان يراد منها ابعاد الاتحاد السوفييتي عن الشعوب الحرة في الشرق الادنى . وسوف يتحقق

لبعض الافراد في بلادنا ان هناك سياسة يمكن ايضا ان تعتمد على غير الدول التي يعتمدون عليها ، اعنـــي الاتحاد السوفييتي ، لينهضوا باقتصادهم ، دون ان يعرضوا استقلالهم لخطر الانعدام . وانه سيكون مصدر اعتزاز لي في حياتي السياسية في بلادي ان اكون اول من باحث رجال دولة الاتحاد السوفييتي في هذه المواضيع ، واتفق معهم على الاسس التي اتفقنا عليها .

« اظن انني اطلت الكلام وكنت عازما على الاختصار . لكنني القيت امس خطابا مكتوبا ، والخطب المكتوبة تكون دائما مدروسة بالقلب والعقل معا . اما الخطب التي تلقى ارتجالا ، فتكون ، في غالب الاحوال ، منبعثة من القلب . ومع ذلك ، فأنا الآن اتكلم بلغة العقل لا بلغة العواطف . واني ، عندما اعود الى بلادي ، سأنقل اليها ما لقيته في الاتحاد السوفييتي من تفهم ومن نية حسنة . وسيثبت للملأ ، مرة اخرى ، ان الاتحـــاد السوفييتي ليس عدو العرب ، بل صديق للعرب ، وانه يريد صداقتهم ويريد نفعهم دون ان يريد بهم شرا . فنحن نتمسك ايضا بمبدأ السلام ولا نريد الا الدفاع عن بلادنا . ومصر الشقيقة ونحن اعطينا البرهان للعالم كله على اننا محبون للسلام ، واننا لا نطمح الا الى الدفاع عن بلادنا وحريتنا ، في حين ان كثيرا او قليلا من الدول ، حتى الكبيرة منها ، اظهرت انها غير ذلك ، وانها تطمع في بلادنا وتريد ان تقضي على حياتنا واستقلالنا . وهذه مناسبة طيبة لنشيد بما لقيناه من الاتحاد السوفييتي من الدعم القوي ، السياسي خاصة ، والمعنوي في كل ما كان يعرض بلادنا للخطر والانهيار . من ذلك موقفه الذي كان له الاثر الاكبر في وقف العدوان واعادة الســـلم والسلام الى ربوع الشرق الادنى . واننا نعتمد عليكم ، ايها الاخوان السوفييتيون ، وعليكم انتم ايضا يا ابناء الدول الحرة في سائر انحاء العالم ، لنكون كلنا يدا واحدة للدفاع عن السلم وعن الحريات وعن الرغبة في العيش بسلام .

« وختاما ، ارجوكم ان تحملوا معنا الكـــأس لنشرب نخب الاتحاد السوفييتي وشعب الاتحاد السوفييتي وقادته وجيشه وجميع الدول التي نحن واياكم معها في هذه الخطة السليمة ، وفي الصداقة العالمية ، والسلام . »

ثم جرى تناول الطعام وما يتخلله ، عادة ، من انخاب . وكان الجو اكثر الفة وحماسة من الحفلة السابقة . ولعل ذلك كان

ناجما عن الارتياح الذي قوبل بـــه الخطابان اللذان القيتهما في الحفلتـين ، وعن اطمئنان اعضاء الحكومة الى صدق نوايانا ، وصراحة اقوالنا ، وتمسكنا باستقلالنا وعزمنا على صون حريتنا وسيادتنا تجاه كل من يطمع بالنيل منا .

ضرورة التعاون مع الروس وفائدته

ولعل الروس كانوا ينظرون الينا نظرتهم الى افراد الطبقة الارستقراطية التي تخشى الشيوعية فتحاربها ولا تقبل حتى الاتصال بحكومة الاتحاد السوفييتي . لكنهم وجدوا فينا جماعة لا تنظر الى ماضي اسرها ، بل الى حاضر جيلها ، وتعمل على الترفيه عن بني قومها بطريقة لا تشبـه طريقتهم الشيوعية ، لكنها مخلصة للطبقة الفقيرة والمتوسطة ، وتريد الخير لها . وسرّهم ، بدون شك ، موقفنا المنسجم مع موقف الحكومة النيابية في سورية، من حيث شد أواصر الصداقة مع الدول الاشتراكية والاعتماد عليها لدرء اخطار الدول الغربية واحباط مؤامراتها .

وليس الروس ، بطبيعة الحال ، في حاجة الى دول صغيرة كسورية في نزاعهم مع امريكا واتباعها . لكنهم يفضلون ، ولا ريب ، ان لا يكون الشرق الاوسط مرتعا ومقاما لجيوش الدول الغربية ، او قاعدة لنفوذها ومنطلقا لهجماتها على القفقاس . وهم يدركون اننا ، اذا ندنت مقدرتنا المالية والاقتصادية ، لا نستطيع مجابهة الاجنبي . فلا بد لنا عندئذ من الوقوع عند اقدامه طالبين المساعدة لنعيش . ولذلك اقدم الاتحاد السوفييتي على مد يد المساعدة لنا ، حتى لا نقع في هذا المأزق الاقتصادي، كما افسح لنا في المجال لشراء الاسلحة والاعتدة لتقوية جيشنا ، حتى نستطيع ان نقف ضد كل محاولة للقضاء على استقلالنا وكياننا .

ونحن ، مـاذا اعطينـا السوفييتيين لقـاء ذلك ؟ اننا ، في الواقع ، لم نعطهم شـيئا ، ولم نرتبط بهم باي حلف او اتفاق عسكري او سياسي . وقد اخذنا منهم سلاحا باسعار مخفضة وباقساط معقولة ، وتعاقدنا معهم على المساعدة الاقتصادية باقساط عديدة وبفائدة قليلة ، دون ان نرتبط باي شرط . واذا قارنا هذا بما كان البنك الدولي اشترطه علينا من شروط والتزامات ، تحقق لنا البون الشاسع بين مساعدة هذا ومساعدة ذاك .

وكان طبيعيا ان نتعاقد مع الاتحاد السوفييتي على مساعدتنا اقتصاديا ، انسجاما مع سياستنا العامة ، وهي تدارك حوائج جيشنا من معامل الـدول الاشتراكية ، والاعتماد على مساعدتها

سياسيا في نزاعنا مع الاستعمار الطامع في بلادنا . ولم يكن ذلك الا بعد ان لمسنا خطر الحصار الاقتصادي الذي اقامته الدول الغربية حولنا لاجبارنا على الخضوع لها فهل كان ممكنا ان ننال اية مساعدة اقتصادية من احدى تلك الدول ؟ فأمريكا تمنح اسرائيل ما تطلب ، وترفض منح اية مساعدة لمصر . وبريطانيا وفرنسا تمدان اسرائيل وتحاربان معها . فهل كان بامكاننا ان نأمل بمساعدتهما ؟ والمانيا وايطاليه وبلجيكا وسائر دول اوروبا كانت تقف موقف امريكا وبريطانيا ، فترفض مساعدتنا ولا تبيعنا ما نحتاج اليه من سلاح .

الفصل الثاني

الاحزاب في سورية

ما كانت الاحزاب السورية ، في الواقع ، سبيلا الى جمع اصحاب العقيدة الواحدة او حتى العقائد المتقاربة من اجل العمل على تنفيذ مبادىء معينة او سياسة معينة . ولئن شذ حزب البعث الاشتراكي ، في بادىء عهده ، عن التشبه ببقية الاحزاب ، الا انه لم يكن يحوي من اصحاب العقيدة الصحيحة سوى نفر قليل . اما الآخرون ، فقد التصقوا به وانتسبوا اليه عن طمع وطموح .

واذا درسنا تاريخ هذه الاحزاب واسباب تاليفها ، وجدنا انها كانت مجرد تجمعات حول شخص او بضعة اشخاص ، كنواة تبدأ بالتضخم ، ثم تنتهي ، في غالب الاحيان ، الى الزوال .

هكذا تالف حزب الشعب ، وكان قطباه رشدي كيخيا وناظم القدسي . فسعى هذان الى ايجاد كتلة من النواب حولهما ، فاستطاعا ان يضما اولئك النواب الشباب الطامحين الى الظهور والوصول الى المراكز الوزارية ، مثل عدنان الاتاسي وفيضي الاتاسي وهاني السباعي وغيرهم . وظلت هذه الكتلة تكبر حتى بلغ عدد نوابها سبعة عشر نائبا . فالفوا حزب الشعب واسسوا قاعدته في حلب . ثم فتحوا له فروعا في سائر المدن .

واما الحزب الوطني ، فكان مؤلفا من فلول الكتلة الوطنية والشبان الطامعين بالوصول الى النيابة . وقد تجمعوا ، بناء على دعوة السيد نبيه العظمه ، وعزموا على تأليف حزب سياسي انضم اليه لطفي الحفار وصبري العسلي ومخائيل اليان والدكتور عبد الرحمن كيالي ونجيب البرازي واسعد هرون وغيرهم .

اما الحزب التعاوني الاشتراكي ، فقد اسسه فيصل العسلي وجعل تنظيماته على نمط الاحزاب الفاشستية او الهتلرية ، وصار يمرن اعضاءه على اطلاق الرصاص . وكان العسلي يأمر وينهي كأنه قائد عسكري فينفذ الاعضاء « ارادته » بدون جدل ، حتى انهم

كانوا يتلقونها وقوفا بالتحية . وراح يجمع الامــوال من مريديه وينفقها على اهوائه وملذاته . فأفلس عدد من اتباعه ، بعد ان باع ما يملك من اراض وعقارات . وكان الرئيس القوتلي يعتمد على هذا الحزب في ١٩٤٨ ، فاستخدمه في الفترة التي سبقت تجديد رئاسته في ذلك العام . ثم لم يلبث ان طرده من جناته وسعى الى القضـــاء عليه .

اما كتلة العشائر التي تألفت في مجلس النواب . فكان الحافز الى تأليفها حماية مصالح رؤسـاء اولئك القوم . اذ اني لا اشك في ان للمملكة العربية السعودية يدا، او بالاحرى ايديا، ملبئة بالليرات السورية وزعت على اعضاء تلك الكتلة . وقد سلكت هذه الهيئة سلوكا معاكسا لسياستنا المتحررة مـــن الاستعمار ، فكانت تخدم مصلحته من حيث ارادت او لم ترد .

الكتل السابقة

واما الكتلة الدستورية ، فقد سعى بولادتها منير العجلاني وامثاله من الذين وجدوا غضاضة بالانضمام الى الكتلة العشائرية ، رغم اتفاقهم معها على الاهداف وقطف المنافع . وضمت هذه الكتلة عددا من النواب ، كسهيل الخوري وامثاله .

ولم تشذ كتلتنا الديموقراطية عن الهدف الذي تألفت من اجله سائر الكتل ، من حيث التجمع حول شخص ، فتسانده في البرلمان ، ثم تحاول ايصاله الى سدة رئاسة الجمهورية او الوزارة ، وبذلك يفيد اعضاؤها من فتات الموائد .

واذا صح هذا القول على مجموع الاحزاب والكتل ، فلا يصح على بعض افرادها طيبي القلب ، خالصي النية ، طاهري اليد ، ممن اشتركوا في هذه المجموعات . غير انهم ما كانوا سوى اقلية ضئيلة لا تستطيع تبديل الحال ، وتغيير الطباع ، وتخفيف الشراهة والطـــمع .

اما عن المبادىء السياسية والاجتماعية ، فكان حزب الشعب يزعم بأنه حارس الديموقراطية وحاميها الامين . وكم من جلسة من جلسات النواب تفز الشعبيون فيها واعتلوا المنـــاضد وراحوا يملأون القاعة ضجيجا وعويلا وندبا عـــلى الحريات والدستور . وكم من وزير كالوا له التهـــم بمخالفة الدستور وانتهاك حرماته المقدسة ! وكم طالبوا بتأليف لجان تحقيق برلمانية للكشف عن سرقات ومساوىء الصقوها بالآخرين عن حق او عن ظلم وافتراء .

حزب الشعب

على ان معظم وزرائهم كانوا لا يترددون في ارتكاب افعال مماثلة للتي كانوا يؤاخذون خصمهم السياسي عليها ، فيعملون على مسايرة اعضاء حزبهم والمنتسبين اليه . وكانوا لا يكتفون بذلك ، وانما يجبرون كل الموظفين على الانخراط في الحزب، والا فلا ترفيع ولا مكافأة ، بل ابعاد وتسريح . وعلى ذلك ، كان حزب الشعب يرفض دائما اعادة الحصانة الى الموظفين حتى لا يفلت من يده السيف المسلط على رؤوسهم . واما اصحاب المصالح وارباب الشكاوى ، فكانت قضاياهم تحل على يد سماسرة الوزراء . وكثيرا ما اضطر موظف الى دفع راتب شهر لقاء ترفيعه ، او ادى طالب وظيفة ولو صغيرة — كدركي او شرطي — دفعة لا تقل عن خمسين ليرة سورية لقاء تعيينه .

واما اتجاه الحزب السياسي، فكان يتأرجح حسب الظروف ، ووفق ما يراه زعماؤه اضمن لبقائهم في الحكم واستئثارهم به . فلجأ بعضهم الى العراق ، مناديا بالاتحاد معه في سبيل الوصول الى الحكم . وسكت آخرون عن انقلاب حسني الزعيم ، لانه انقذهم من شكري القوتلي و من المجلس الذي كان ضدهم ، وتقبلوا الحكم من يد الحناوي ، لانه منحهم السلطات بكاملها . وآثروا الانضمام الى حلف بغداد الاستعماري وعارضوا الاتفاق مع مصر والسعودية ، لان نوري السعيد كان يغذي اكثرهم بالمال والوعود . وتمنوا غلبة الانكليز على مصر ، ايام العدوان الثلاثي ، ثم وافقوا على الوحدة مع مصر ، مضحين باستقلال سورية تخلصا من التجمع القومي الذي كان يهدد نفوذهم السياسي ، ومن الجيش الذي كانوا يخشون ان يكشف مؤامراتهم فيلقيهم في غياهب السجون ، كما فعل بعدنان الاتاسي وامثاله .

الحزب الوطني

ولم يكن الحزب الوطني اقل من حزب الشعب ميوعة وتذبذبا . فقد بدأ خيانته بدعم شكري القوتلي وطراز حكمه ، ثم عارضه في الخفاء حينما لم يلق منه سندا في انتخابات ١٩٤٧ في حلب . ثم انضوى تحت لواء الزعيم حسني الزعيم ، وكاد صبري العسلي ان يؤلف الوزارة لو لم يقتل الزعيم في ١٤ آب ١٩٤٩ . وعدل الحزب نظامه الاساسي ليصبح الحكم في سورية ملكيا لا جمهوريا ، وذلك تمهيدا للاتحاد مع العراق . ووحد جهوده مع حزب الشعب لتحقيق ذلك ، ثم رجع الى النظام الجمهوري وماشى الشيشكلي حينا ، حتى انقلب عليه . واتفق مع سائر الاحزاب

على المطالبة بالحياة الدستورية ، بعد ان قبض زعماؤه الاموال من العراق. وتكاتف الحزب الوطني مع حزب الشعب على الاشتراك في العمل الوزاري في ١٩٥٤ . ثم لم يلبث ان سحب وزراءه ، فاسقط الوزارة وعقد تحالفا جريئا معنا ومع حزب البعث الاشتراكي . وانسحب على الاثر فريق من اعضائه ، بينهم لطفي الحفار وسهيل الخوري وحبيب كحالة . ثم ايد ترشيح القوتلي لرئاسة الجمهورية، مع ان الاحلام عادت تدغدغ خيال العسلي لاقتناص الفرصة واصطياد ذلك المنصب . ولم يقف في سبيله سوى زميله المحبب مخائيل اليان الذي كان متآمرا مع العراق والدول الاستعمارية على انجاح القوتلي . اما موقف الحزب من حلف بغداد فكان مدار الاستهزاء والاستنكار . فالعسلي يقاومه ظاهرا ، لكنه لا يجرؤ على الخروج على راي اليان . فانقسم الحزب قسمين ظلا يتعالجان ويتماحكان حتى انتهى عمر الوزارة . فزال سبب الخلاف وعاد الاعضاء متفاهمين . ولم يدم هذا الاتفاق طويلا ، اذ انه تعرض لهزة قوية جديدة عند اكتشاف المؤامرة العراقية ـ البريطانية في خريف ١٩٥٦ (وقد نظمت المؤامرة لقلب الحكم في سورية، في الوقت الذي يبدأ فيه العدوان الانكليزي ـ الافرنسي على مصر) . فهرب مخائيل اليان الى بيروت وتخلص صبري العسلي من تاثيره ونفوذه عليه. وبدانا نجمع صفوف النواب لتنظيم التجمع القومي واقالة الحكومة التي ظهر هزالها بسبب وزرائها الشعبيين. واختلف اعضاء الحزب الوطني على الاتجاه الجديد الذي كان صبري العسلي يريده لحزبه ، فانسحب منه بدوي الجبل وليون زمريا وغيرهما .

وهذا الموجز لتاريخ الحزب الوطني يدل على تأرجح سياسته، ذات اليمين وذات اليسار . فهو تارة جمهوري ، وتارة اخرى ملكي . وهو مرة عراقي ، ومرة اخرى مصري . وكان فترة اشتراكي النزعة ، وفترة اخرى محافظا رجعيا !

حزب البعث الاشتراكي

واما حزب البعث الاشتراكي ، فقد اوضحت رايي فيه وفي اعضائه عند بحث الوحدة بين مصر وسورية . ولا باس من تلخيصه بالقول انه في الاصل لا يختلف عن الحزب الشيوعي في المبادىء والنظريات الاجتماعية، كما انه لا يختلف عنه في السياسة الخارجية. الا ان كل واحد منهما كان يريد ان يسيطر على الساحة ، وان تكون القيادة بيده . فهذا الخلاف وحده هو الذي فرق بين قادة الحزبين

وادى بهما الى التباعد، ثم العداء، ثم التنكيل، واحدهما بالآخر.

وقد تعاون حزب البعث الاشتراكي مع الحزب الشيوعي مدة طويلة في جميع الميادين ، الى ان بدأ الحوراني وجماعته يخشون غلبة بكداش وانصاره . فراحوا يحاربون الشيوعيين ويهاجمونهم ، وذلك في اواخر ١٩٥٧ . وقد دعا الفريق عفيف البزري زعماء الفريقين ، بحضوري ، الى الاجتماع والتصافي . فاظهر مصطفى امين صدق عزمه على حل الخلافات المحلية ، وشكا هجوم جماعة البعث على جماعته في كل بلد . اما الحوراني ، فكان يراوغ . ولما اقترح البزري تاليف لجنة من معتمدي الحزبين للذهاب الى كل بلد وازالة سوء التفاهم بين اعضائهما ، لم يتقبل الحوراني هذا الاقتراح ، الا لكي لا يقال عنه انه يرفض التصافي . على ان الحاضرين لمسوا عدم رغبته فيه .

وكان حزب البعث الاشتراكي في الاصل حزبين : الاول يدعى حزب البعث العربي ، والثاني الحزب الاشتراكي . وكان حزب البعث اسمه شباب مثقفون في دمشق ، وانحصرت جهودهم في ميادين الطلاب ، وضمن حلقة تعنى بالنظريات الفلسفية . ولم يكن لهذا الحزب قوة سياسية في دمشق ، وهي مركزه . ويدل على ذلك ان رئيسه ميشيل عفلق لم ينجح في انتخابات الجمعية التأسيسية في ١٩٤٩ ، مع انه كان عضوا في الحكومة التى اشرفت عليها . وكان هذا الحزب هدفا للهجوم المستمر والحملات العنيفة التي كان علماء الدين ، بجماعاتهم ورابطاتهم العديدة ، يشنونها ضده وضد اعضائه ، متهمينهم بالزندقة وبمحاربة الدين .

اشتراكية اكرم الحوراني وسياسته

واما الحزب الاشتراكي، فكان قطبه اكرم الحوراني الذي الف الحزب رسميا في ١٩٤٩ ، حينما كان وزيرا في حكومة هاشم الاتاسي ، قبل انتخابات الجمعية التأسيسية . وكان منشأ الحزب رابطة سياسية انشأها بعض الشبان في مدينة حماه ، باسم رابطة الشباب ، وذلك في اوائل الحرب العالمية الثانية . وحينما دعيت البلاد الى انتخاب مجلس نواب في صيف ١٩٤٣ ، واخذ شكري القوتلي وانصاره يؤلفون القوائم في كل بلد ، شعر الحوراني بحرج موقفه الناجم عن عدائه المعلن للطبقة الغنية والاسر المعروفة في حماه . فالتجأ الى سعد الله الجابري الذي اخذ على عاتقه حمل زعيم حماه ووجيهها المعروف فريد بك العظم على عدم معارضته .

مذهب ودخل عليه، دخالة عرب، ورفض تناول القهوة ما لم يلب صاحب الدار طلبه. وهكذا تمكن الحوراني من الفوز بالنيابة عن تلك المدينة بفضل تمسك فريد بك بالعادات والتقاليد العربية العليا، مضحيا في سبيل ذلك بآرائه الشخصية ، وفاديا امواله واموال اولاده وابناء عمه وسائر اغنياء حماه لاجل ارضاء سعد الله الجابري . اذ ظهر الحوراني ، فيما بعد ، انه العدو اللدود لفريد بك واولاده وابناء عمه ، وجميع اثرياء حماه وغيرها من المدن . فقد كان يجد لذة في افقار الاثرياء وكسر نفوذهم واذلالهم .

وكانت الصلات بين الحوراني وضباط الجيش السوري متينة جدا ، لا لسبب الا لوحدة اتجاههم السياسي والاجتماعي . وقد تمكن الحوراني بمعونة اولئك الضباط من السيطرة على مدرسة حمص العسكرية التي كانت تخرج كل سنة عددا من الضباط الشباب ، لا يقل عن المئة . والغريب ان اكثرية الطلاب الراسبين في مدارس التجهيز كانوا يهرعون الى المدرسة العسكرية التي كان يرتادها كل طالب كسول يستطول مدة الدراسة في المدارس العادية ، من تجهيزية وجامعية . فكان لا يواظب سوى سنتين ، يتخرج بعدها ملازما ثانيا ، ثم يقفز المراتب بسرعة خيالية ، بحيث لا تمضي عشر سنوات ، حتى يصبح عقيدا او زعيما . وكانت تبهره مظاهر اللباس العسكري ، فيمشي الخيلاء متكبرا على رفاق الدراسة الذين ما يزالون يجلسون على مقاعد الدراسة الخشبية، بينما كان هو يتصدر المجالس ، ويحتل المقاعد الوثيرة في مركز القيادة ، ويأتمر بامره عدد لا بأس به من الجنود والضباط .

على ان كل ذلك لم يكن شيئا اذا ماقيس بالمنصب الذي يحصل عليه الضابط في قيادة شؤون بلاده السياسية وتوجيهها في الحقلين الداخلي والخارجي . وقد زاد شوق الناس للانتساب الى المدرسة العسكرية بنسبة عدد الانقلابات العسكرية التي كانت تعاني منها البلاد الامرين ، لكنها كانت تعود على الضباط ، كل مرة ، بسلسلة من الترفيعات التي لا يحلم بها اي ضابط في جيش منظم ، ناهيك بالنفوذ والسلطان .

وكانت جهود الحوراني منصرفة الى حشد اكبر عدد ممكن من الشبان المنتسبين اليه في المدرسة العسكرية ، والسعي لحمل بقية طلابها على الانخراط في حزبه . وكان يلاقي العون والمساعدة من رؤساء المدرسة ومعلميها ، ومن اركان قيادة الجيش نفسه .

ولم تمض فترة سبع او ثماني سنوات ، حتى كان معظم الضباط منتسبين لحزب البعث الاشتراكي .

وعلى ذلك ، اعتمد الحوراني في دعم حزبه على ثلاثة عوامل : ١ ــ ضباط الجيش ، ٢ ــ الطلاب ، ٣ ــ الفلاحون .

اما الضباط ، فقد ذكرنا منشأ ارتباطهم بالحزب . واما الطلاب الشباب ، فكانوا ينخدعون بكل قول ، صادق او كاذب ، ينادي بالاستقلال وبمحاربة الصهيونية . لذلك كانوا يلتفون حول الزعيم المفوه الذي يعدهم باكتساح فلسطين وتخليصها ، لا سيما بعد ان تحققوا من كذب بعض الزعماء الآخرين وشعوذتهم .

واما الفلاحون فكان الحوراني يملأ بطونهم الجائعة وعودا باعطائهم اراضي الاقطاعيين ، وبازالة كابوسهم عنهم .

ولم يكن ، والحالة هذه ، مستغربا ان ينجح الحوراني في استمالة العناصر الثلاثة الآنفة الذكر . فهو انما كان يعد بما ليس عنده ، ويمنح ما ليس يملكه : الرتب والسلطة للضباط ، وفلسطين والتقدمية للطلاب ، والاراضي للفلاحين . وهذا كله لم يكن من مخلفات والده ، ولا من كسب يديه . فكيف لا يكيل الوعود بدون حساب ، وكيف لا يستشري به الامر الى حد انه لم يعد قادرا على الوقوف هنيهة ، لياخذ نفسا ، وليرتاح قليلا !

على ان كل هذه الوعود الرخيصة لم تكن كافية لايصال الحوراني الى مركز القيادة والسيطرة الكاملة على شؤون البلاد ، فيتصرف بها وبمقدراتها حسب اهوائه ومشيئته . ذلك ان سياسته كانت تصطدم بالعناصر التالية : (١) اصحاب رؤوس الاموال . (٢) الاحزاب السياسية الاخرى . (٣) الدول الاجنبية . (٤) رجال الدين .

ولم يكن مستغربا من اصحاب رؤوس الاموال وقوفهم ضد الحوراني . وهو الذي يناصبهم العداء ، وينادي بالغاء الملكية او تحديدها في الاراضي والمساكن ، ويحرض العمال ضد اصحاب المعامل . الا ان اولئك الاثرياء كانوا من البخل وعدم الادراك على جانب عظيم . فلم يوحدوا صفوفهم ، ولم يجمعوا الاموال لمحاربة خطر وصول الحوراني الى الحكم ، بل اعتمدوا على السنتهم يطلقونها في الشتم والسباب ، واهمين ان المعركة بينهم وبينه تكسبها اقدر فئة على السباب والشتائم .

ويلومني البعض بانني ، مع كوني من اصحاب رؤوس الاموال،

لم احاربه . وانما حملته على كتفي الى اعلى مراتب الدولة ، وهي رئاسة مجلس النواب . كما انني ساندت حزبه في انتخابات ١٩٥٤، والفت معه التجمع القومي ، واعنته على خصومه . وجوابي على هذا القول اني دخلت الساحة السياسية في ١٩٤٣ ، وشكري القوتلي وسعد الله الجابري وجميل مردم وامثالهم من قادة البلاد، يتجاذبون اكرم الحوراني ومن شاكله . وذلك على الرغم من كونهم من الطبقة المحافظة ومن اصحاب الاراضي ورؤوس الاموال . ومع ذلك فاني لم اساير الحوراني حتى ١٩٥٤ ، حين شعرت بان مقاومته في غلوه لا تكون بالعنف والشدة . وذلك لانعدام العناصر المستعدة لهذا النوع من المعالجة . وتبين لي ان احسن وسيلة لتخفيف حدة تطرفه هي السير الى جانبه ، والسعي لتوجيه نشاطه ، والاكتفاء بتحقيق ما يقتضي من الخطوات الايجابية الوئيدة في التقدم الاجتماعي ، بحيث تنتقل البلاد من اوضاعها الراسمالية السيئة الى اوضاع اسلم واضمن لمصلحة صاحب راس المال والعامل ، وذلك بمراحل مدروسة ، لا بنزوات طائشة وانقلابات جذرية . فكنت ، اذن ، من القائلين بالتطور التدريجي الوئيد المطرد الذي لا يعيق الانتاج ، بل يزيد في الدخل القومي عن طريق تحسين التوزيع . ولم اكن من القائلين بالثورة الاجتماعية ، لانني كنت اخشى منها على الانتاج ان يتوقف نشاطه وعلى الاموال ان تتسرب الى الخارج ، فتحرم البلاد منها .

وعلى ذلك رافقت الحوراني منذ ١٩٥٤ حتى اواخر ١٩٥٧ ولم امكنه من تحقيق اية نزوة من نزواته الخطرة . فهو لم يستطع تنفيذ اي بند من بنود سياسته الا في عهد الوحدة عامي ١٩٥٨ و ١٩٥٩ حينما ناصره عبد الناصر، فتجاوبت مبادئهما واهدافهما. واستفاد الحوراني من جهل عبد الناصر بواقع الحال في سورية ، فاغراه بالتفاف الفلاحين جميعهم حوله . فأمر بالاصلاح الزراعي واهمل المشاريع الاقتصادية الكبرى التي لو حققت كما رسمتها في ١٩٥٧ ؛ لمكنت الفلاح من الحصول واقعيا على ارض مروية كافية لنشاطه في الوقت الذي يبقى صاحب الاراضي القديمة غير محروم منها .

فكنت اذن اسير مع هذا السيل الجارف واعمل على توجيهه في المسالك غير المضرة بالمجموع ، حاسبا حساب طغيانه وخطر اتساعه ، عاملا على مراقبة سيره واتجاهه .

اما في السياسة العربية والخارجية ، فكان حزب البعث العربي هو الحزب الوحيد الذي اتفقت آراؤه مع آرائي على صعيد واحد . ولم يكن يدور في خلدي اي شك في صحة عروبة الحوراني والبيطار وفي مقارعتهما الاستعمار الغربي ووقوفهما من اسرائيل الموقف العربي النبيل . وهذا العامل السياسي كان الرباط الوثيق الذي شددنا به تحالفنا ومساعينا المشتركة .

وكانت طبيعة الاوضاع هذه تزيد علاقاتنا وثوقا وتبعدنا عن الشاطىء الذي يرابط فيه كل من حزب الشعب والحزب الوطني واولئك العملاء الاجراء من النواب الذين باعوا انفسهم للمستعمر وصاروا عنده كالعبيد .

ميثاق التجمع القومي

وميثاق التجمع القومي الذي وضعناه في خريف ١٩٥٦ كان البرنامج الاساسي الذي اتفقت عليه مع حزب البعث الاشتراكي والذي اسهم فيه من آمن به من نواب الحزب الوطني وغيرهم من النواب المستقلين . وكان هذا الميثاق — لو استمر تنفيذه على يد حكومة كحكومة صبري العسلي في بدء نشأتها — كفيلا بدفع الاقتصاد السوري خطوات كبيرة الى الامام وبرفع الدخل القومي الى سوية يفيد منها الغني ومتوسط الحال والفقير . هذا بالاضافة الى انه كان ضمن لسورية المقام العالي في الشرق الادنى والمركز المرموق بين الدول العربية ، ذلك المقام وهذا المركز اللذان بدات جميع الاوساط السياسية في الداخل والخارج تعترف به لسورية منذ منتصف ١٩٥٧ ، اي بعد اتفاقنا مع الاتحاد السوفييتي على المعونة الاقتصادية والفنية وعقدنا معه الصفقات الكبيرة لشراء الاسلحة والذخائر .

واني لفخور باني كنت من العاملين على توجيه خطى الجمهورية السورية في هذا السبيل ورفع شانها الى الدرجة السامية ، بحيث اصبحت سورية صاحبة المركز المرموق تتسلط عليها الانوار الكشافة ومحط آمال بعض الدول وسبب تخوف وذعر البعض الآخر . ولو اقتصر الامر على حقد الدول الاجنبية فحسب ، لهان الامر وسهل . لكن المصيبة حلت بنا من جراء غيرة بعض الدول العربية مما سمت اليه سورية ، حاجبة شمس الخير عن سائر تلك الشقيقات . ويا ليتهن فرحن بما آل لشقيقتهن ، ليفدن من بعضه . فاخواننا في مصر عز عليهم ان تحتل سورية الصغيرة مقام الصدارة وان تنعم هي بخيرات المساعدات الاقتصادية . وخافوا ان يفقدوا ما بداوا به من سياسة القبض يمنة ويسارا ، حاملين لافتة « الحياد الايجابي »

لستر خطتهم ولاستجلاب الاموال من الشرق والغرب معا . وكانوا يمننون الدول الطامعة انهم زعماء العرب ومسيرو سياستهم وموجهو خطاهم .. وكانوا يظهرون التفاف الشعوب العربية حول مصر في ايام محنتها في قناة السويس ، كمظهر من مظاهر تعلق العرب بعبد الناصر ، رسول العروبة ، وقبلتهم الثالثة . وبذلك يساومون على ظهر الشعوب العربية وينالون الفوائد على حسابها .

ردة فعل التعاون السوري — السوفييتي على الصعيد العربي

فكيف لدولة صغيرة كسورية ان تشق لنفسها طريق المجد والعلو ، غير مكترثة بالشقيقة الكبرى ، الوصية على الشقيقات ؟ وكيف تقدم حكومة سورية على التعاقد مع الاتحاد السوفييتي مباشرة ، فتحصل على المساعدات الاقتصادية والفنية الكفيلة بانتعاش اقتصادها وازدهاره ؟ وكيف تحقق ، بدون ضجيج وبدون طنطنة ، مشروع السد على الفرات الذي يضاهي ، من حيث سعة الاراضي المستفيدة منه ، سعة الاراضي التي سيرويها السد العالي الذي اقامت مصر الدنيا واقعدتها من اجله ، والذي اوقع العالم في خطر حرب عالمية ضروس ؟

وماذا يعمل ، اذن ، في دمشق سفيرهم محمود رياض ، المفوض السامي ؟ وكيف اجازت الحكومة السورية لنفسها الاقدام على تلك الخطوة بدون الحصول على موافقة الشقيقة الكبرى ؟ وما هو هذا الباب الذي ستدخل منه سورية الى العالم الخارجي ، دون وصاية رائد العروبة ، ودون ان تمسك يده ليدلها على الطريق ؟

فاذا استقلت سورية بسياستها الخارجية ، وانعدم نفوذ مصر عليها وتحررت من سائر القيود ، وازدهرت سياسيا واقتصاديا وماليا ، فكيف يتسنى لمصر الشقيقة ممارسة وصايتها عليها والدخول مع الدول الاجنبية بمفاوضات تكون سورية فيها احد عناصر تبادل المنافع ؟ والبترول اذا بقي في الاراضي السورية تحت نفوذ حكومتها المتحررة ، فما فائدة قناة السويس وتعطيل الملاحة فيها ؟ فيجب ، اذن ، ان يكون البترول السوري ووسائل ايصاله الى البحر المتوسط تحت يد الحكومة المصرية ، سواء بانابيبه المعدنية او بممره البحري عبر القناة ! وهذا سلاح ماض يمكن استخدامه كوسيلة للهجوم والدفاع ، وكعنصر اساسي على مائدة المفاوضات والمساومات !

وتلك الحكومة في دمشق التي تجرؤ على الخروج على الطاعة، وتبدأ السير في طريق مؤد الى التحرر من النفوذ العربي ... هذه

الحكومة يجب ان تزول ، والعنصر الفعال فيها ، خالد العظم ، يجب ان يتوارى او ان يوارى ! اليس هذا هو السر في حمل محمود رياض البعثيين الاشتراكيين على مقاطعة الانتخابات البلدية في ١٩٥٧ ، لانها كانت ستضعفهم وتقوي اصدقاء خالد العظم ؟ اليس هذا هو منشأ حملة محمود رياض على فكرة خالد العظم في حزب جديد ، لئلا يشتد ساعده ويسيطر على المجلس التشريعي في ١٩٥٨ ؟ اليس هذا ايضا هو السر في موقف البعثيين العدائي من حليفهم خالد العظم ، وهم الذين كانوا اتباعا لمحمود رياض ، يتلقون منه التوجيه والايحاء ؟ لقد خانوا على انفسهم ثم خانوا على مصر ، فراحوا يجتمعون سرا برشدي الكيخيا ، وببعض رجال حزب الشعب ، ليخذلوا التجمع القومي ويقيموا محله جبهة بعثية اشتراكية شعبية وطنية يدور في فلكها سائر العملاء واجراء الاستعمار ! ذلك لان الشعبيين والوطنيين يؤثرون الانقياد لاكرم الحوراني ولمصر على التعاون مع خالد العظم ، رغم انه انقذ حياة بعضهم من حبل المشنقة الذي كان يمسك باطرافه اكرم الحوراني وعفيف البزري . لكن مصلحة بريطانيا ومصلحة الولايات المتحدة هي في ان يبعد عن ميدان السياسة كل من نادى بالصداقة مع الدول الشرقية ، دون الدول الغربية ! اما اكرم الحوراني ، رغم مشاركته هذا الراي ، فهو عدو الشيوعية لا من حيث مبادؤها ، بل من حيث الجماعات القائلة بها في سورية . وهو ، اذن ، حليف طيب ، ريثما يتم التغلب على التجمع وعلى الضباط ، «بيفرجها الله !» وكان تورط اكرم الحوراني ضدي وضربه التجمع القومي عرض الحائط ، ثم انخراطه في صفوف العاملين للوحدة مع مصر ، ناشئا عن ان تلك الوحدة حققت ما عجزت الاحداث الاخرى عن تحقيقه ، وهو قلب نظام الحكم في سورية ، وكم الافواه فيها ، وتحريف سياستها في اتجاه السياسة الغربية .

هكذا كان شأن بعض الدول العربية الشقيقة ، مما يحمل المرء على تذكر البيت المليء بالحكمة والموعظة :

وظلم ذوي القربى اشد مرارة   على النفس من وقع الحسام المهند

واما الدول الاجنبية فانقسمت شطرين : في الاول ، الدول الاشتراكية في اوروبا وآسية وفي الثاني الدول الغربية الاستعمارية واتباعها .

وقد رحبت الدول الاشتراكية بالصداقة بينها وبين سورية

وراحت تزيد في تأييدها في اوساط الامم المتحدة وتمد لها يد المعونة الاقتصادية والفنية وتعينها على تصريف المحاصيل التي تمنعت الدول الغربية عن شرائها ، جريا علـى قاعدة الحصـار الاقتصادي - واستمرت هذه الدول الاشتراكية ، وفي مقدمتها الاتحاد السوفييتي وتشكوسلوفاكيا ، على توريد الاسلحة والذخائر وارسال الخبراء في الامور العسكرية والفنيـة . ثم انهـا اعلنت استعدادها لدعم مخططات سورية ومشاريعها الاقتصادية والاجتماعية بالمال، يسدد على اقساط ذات آجال طويلة وبفائدة زهيدة . وجاء الخبراء الروس الاخصائيون بشتى انواع المشاريع ودرسوا اقتراحات خبرائنـا وقاموا بجولات في انحـاء البلاد . وشملت المشاريع التـي اعلن السوفييت عن استعدادهم لتموبلها وتزوبدها بالمعدات والخبراء في بناء السدود على الانهر بحيث تزيـد مساحة الاراضي المروية نحو ثمانية ملايين دونم من اطيب الاراضي واخصبها . هذا بالاضافة الى بناء السكك الحديدية الموصلة بين البحر ومطارح الانتاج ، ناهيـك بالدراسة الجيولوجية لوضع خريطـة مفصلة عما تحت الارض ، وبالمعامل العديدة واهمها معمل انتاج السماد الكيميائي ، وبمحطات توليد الكهرباء وغير ذلـك من المشاريع ، سواء منها ما اكتملت دراسته او ما يحتاج الى دراسة جديدة .

وطار صواب الدول الغربية من هذه المعونة المالية والفنية التي حصلت سورية عليها من الاتحاد السوفييتي ، وتبين لها ان هذه البلاد لم تعد تلك البلاد الفقيرة المحتاجة الى قرض يمنحـه البنك الدولي بفوائد لا تقل عن ٦٪ وبشروط تعسفية لا يقبل بها الا المكوي على نار الفقر والفاقة ، والى خبراء افرنسيين او بريطانيين يحتفظون بالحقائق ويخدعوننا بالاكاذيب والدراسات والاستنتاجات الخاطئة قصدا وايهاما . هذا فضلا عن ان سورية ما عادت بحاجة الـى ممالأة مصالح هذه الدولة او تلك ، حتى تشتري منها عشرين الف طن من القمح ، او عشرة الاف طن من القطن !

والاعمق من هذا وذاك ان الدول الغربية تيقنت انه لم يعد في سورية سياسي يجرؤ على اظهار علاقته بها او تقديره لها او ترجيحه التعامل معها . وبات القائلون بالصداقة والتعـاون مع الدول الشرقية اسياد الموقف في مجلس النواب وفي الجيش وفي الاوساط الشعبيـة . وصار عملاء الاستعمار واتباعه ومحاسيبه ودعاته يلامسون الجدران اذا مشوا في الشوارع ، ويركنون الـى

الزوايا المظلمة اذا دعوا الى حفلة ، ويلوذون بالصمت المطبـق في المجالس والنوادي . فاذا تحدثـوا فهمسـا ، واذا حيوا فمطرقي الرؤوس . وان هم هجعوا في اسرتهم ليلا ، تكاثرت عليهم الاوهام وسطا عليهم الذعر . هكذا كان ليلهـم في خوف ونهارهم في وجل ، وكان خيالهم يوهمهم في كل ساعة ان يد الشرطي اطبقت على اكتافهم لتقودهم الـى السجن !

فحزب الشعب المتآمر ، باكثريته ، تنخفض اصوات اعضائه ويهجر رئيسه دمشق ومجلس النواب ويقبع في داره بحلب . والحزب الوطني يهرب زعيمه مخائيل اليان تحت جنح الليل في صندوق سيارة رئيس الوزراء هربا من الحبس والفضيحة . اما الآخرون ، ممن لاذوا من الغنيمة بالفرار ، فهرعوا الى بيروت يتفيؤون فيها تحـت معاطف العراقيين ويقبضون الرواتب ثمنا لخيانتهم . واما من القي عليهم القبض وزجوا في سجن المزة ، فقد حوكموا وحكم عليهم بشتى درجات العقوبة ، من الحبس الى الاعدام . ولولا شفقتي علـى عيالهم لتهاوت اجسادهم على اعواد المشانق في ساحة المرجة .

الدول الاستعمارية ما تزال تحيك المؤامرات

الا ان هذه النكسات المتتابعة التي لحقت بسياسة الدول الغربية ، وخاصة فشلها في احتلال مصر وفرض سيطرتها عليها وعلى سائر الدول العربية وفي مقدمتها سورية ، لم تفت في عـزم الاستعمار ولم ترجعه عن غيه . فظل يحيك المؤامرة تـلو المؤامرة مضحيا بمن يكتشف امره فيها من عملائه واجرائه ، مغدقا الاموال بسخاء لشراء الضمائر وخداع البسطاء وذوي المطامع الدنيئـة ، لعله في النهاية يجد الفجوة التي يستطيع الولوج عبرها الى احتلال قلعة العروبة والاستيلاء على قلبها الخفاق . لكنه ، ولله الحمد ، كان يصطدم في كل مرة بعقبة او بعقبات كأداء تحول بينـه وبين اهدافه ، فيعود بالخزي والفشل ، تاركا في الساحة الاسرى والمؤن . فالاجراء ينزلون السجون ، والاموال تملأ جيوب مـن يكون اداة اكتشاف المؤامرة ، حين يوهـم المستعمرين بانـه معهم ، فيقبض اموالهم ويطلع على اسرارهم وعلى اسماء عملائهم فينقل الامر الى رؤسائه . وهكذا تقع الرؤوس في الشبكة وتتم فصول تلك الرواية المخجلة المضحكة ... الى ان يرتفع الستار عن تمثيلية جديدة ، اذا اختلفت عن تلك في تكوينها ، فهي مثلها في الغاية والمصير .

ويقول البعثيون اليوم ــ بعد ان استقالوا من الوزارات في

مطلع ١٩٦٠ — ان الولايات المتحدة ، بعد ان اخفقت مؤامراتها العديدة لابعاد الساسة التقدميين عن مركز الحكم في سورية وخاب املها بنجاح اية مؤامرة في المستقبل ، لم تر امامها سبيلا سوى اللجوء الى عبد الناصر واغرائه بزعامة الوحدة العربية . فمهدت له السبيل لدى الفئات التي تتلقى التوجيه السياسي منها واوعزت لها بحمل العسكريين المناوئين لحزب البعث على المطالبة بالوحدة بين سورية ومصر . فكانت هذه ، على زعم البعثيين ، اكبر خديعة سياسية وقعت سورية في حبائلها . اذ كانت النتيجة اقصاء اولئك السياسيين الذين نهضوا بسورية واوصلوها الى ذروة المجد والقوة ، وانقطاع حبل الصداقة بين سورية والاتحاد السوفييتي ، والقضاء على الاحزاب السياسية ، وتشريد الشيوعيين وسجنهم، بحيث زالت من الميدان العام ، ومن ادارة شؤون الدولة وسياستها، الفئات التي كانت تقف للولايات المتحدة بالمرصاد ، وتقاوم سياستها الرامية الى التدخل في شؤون الشرق العربي وبسط نفوذها على الشرق الادنى بكامله .

هذا هو راي البعثيين الاشتراكيين ، بعد ان نفضوا يدهم من الوحدة وانسحبوا من الحكم . فهل تبلور هذا الراي عندهم بعد الاستقالة او قبلها ؟ لقد عملوا ، عند تأليف الحكومة الاولى للوحدة، بكل جد ونشاط على اقصائي ، ثم على محاربة الشيوعيين وسجنهم وتشتيتهم . فلما عبس عبد الناصر بوجههم واقصاهم — فيما عدا الوزراء منهم — عن الاتحاد القومي ، قنعوا بان الامر لن يستتب لهم كما ارادوا ، وان الولاية على سورية والتصرف بشؤونها لن تكون من نصيبهم ، فقرروا الاعتكاف . ولست ادري اذا كان ثمة اسباب او مؤامرات اخرى حملت القوم على نفض يدهم من الوحدة التي طبلوا لها وزمروا ، ثم نادوا بخيانة كل من يعمل لها او يؤمن بها .

الحزب التعاوني الاشتراكي

اما الحزب التعاوني الاشتراكي ، فقد الفه زعيمه فيصل العسلي من شباب مهووسين ، جميعهم من بيئات قبابية المشارب والافكار ، مختلفة في المنشأ والثقافة ، واكثريتهم ممن ينساقون وراء قائد جريء ، يستفز فيهم شعور الطبيعية والغريزية للتهويش والشغب ، ويدفعهم في مسالك وعرة تؤدي بهم في كثير من الحالات الى الضرب والجرح والقتل والتعدي والحرق وغيرها من انواع العنف . وكان كل ذلك ، لا في سبيل مبدأ سياسي او هدف اجتماعي لا يرى اصحابه ان الوسائل السلمية كافية لتحقيقه ، فيعمدون الى

العنف والقوة لقلب النظام المشتكى منه واقامة نظام جديد متوافق مع غاياتهم !

ولئن شابهت الوسائل التي كان يستخدمهـا حزب فيصل العسلي تلك التي كان يستعملها الفاشيون والنازيون وغيرهم من الحزبيين المنفيين ، فالفارق كان ظاهرا في الاساس ، اي في ان اولئك الفاشيين والنازيين كان لهم برنامج واضح يعملون على تنفيذه. واما التعاونيون ، فالمبادىء التي تستروا بها كانت عبارة عن نظريات مقتبسة من شتى النظريات الاجتماعية العالمية ، اعتقادا منهم انها كافية لاظهار حركتهم بمظهر التقدمية الاشتراكية . في حين ان رئيسهم العسلي لم يكن سوى شاب احتار في اي الطرق يسلك ليصل الى الحكم ، كما احتار في اي الدول يتبع ليكسب منها المال والتأييد . فقد كان عطشانا للشهرة وجائعا للشعبية ، فاراد ان يشبع شهوته منهما باية وسيلة كانت .

فبعد ان حصل على شهادة كلية الحقوق بدمشق ، عين في القضاء وتولى النظر في قضية قتل ، فراح يصرح في الصحف ويكبر الامر ، متهما الابرياء على نحو يرمي فيه الى اظهار نفسه اكثر من اظهار الجاني . ثم عين في مديرية الاعاشة مفتشا ، فوظف شباب حزبه وجعل منهم زمرة تهاجم المدن والقرى ، تمهيدا للمعركة الانتخابية النيابية المقبلة .

ثم انتسب الى شكري القوتلي وصار يدعو الى تجديد رئاسته في ١٩٤٨ . وسار مرة في تظاهرة صاخبة وراء نعش فارغ ، ادعى انه يحوي واحدا من اتباعه قتله رجال الشرطة . لكن النعش انقلب وظهرت الفضيحة .

وهاجم المخازن التجارية فنهبها هو واتباعه وحرقها . ثم قتلوا شابا في عرض الطريق . وجرى هذا كله تحت بصر الحكومة وسمعها فلم تتحرك . ثم ما لبث ان انقلب على شكري القوتلي ، فطلب مني المشار اليه توقيفه وزجه في السجن ، لا لانه قتل الشاب المذكور ، بل لانه قام باعمال سياسية لم ترق للرئيس !

وكان من اخلص اصدقاء حسني الزعيم . ثم لم يلبث ان خاصمه وهاجمه في مجلس النواب ، متهما اياه بالخيانة العظمى . وكان هذا التهجم في مقدمة العوامل التي حملت حسني الزعيم على القيام بانقلابه في ١٩٤٩/٣/٣٠ . فاعتقل العسلي وزجه في سجن المزة .

ثم التف فيصل حول ابن عمه صبري العسلي وخدعه بالعمل معه في انتخابات ١٩٥٤ ، فافاد من اصوات الوطنيين ولم يمنحهم في الحقيقة اي سند .

ثم قبض اموالا وافرة من سفير مصر بدمشق ، فصار عميلا مصريا يتصدر الاستقبالات والحفلات للصاغ صلاح سالم ويدعو الى الاتفاق مع مصر . ثم انقلب عليها في ١٩٥٦ ، قبيل العدوان الثلاثي ، ورافق من اشترك بالمؤامرة الانكليزية ـ الاميركية في سورية حتى انتهى به الامر الى الهروب من سورية .

وساند حكومة صبري العسلي في ١٩٥٥ ، بغية اقتطاف ثمرة اتعابه كرسيا وزاريا . فلما لم يفز به ، صار من اخصامها الالداء .

وكان فيصل ينتقل هو وعشيرته كما ينتقل رئيس العشيرة مع افرادها وجمالها وبعيرها . وكان يقبض ثمن الولاء ، كما يقبض رئيس العشيرة ثمن اندفاعه . لكن فيصل لم يكن يكتفي بما يقبضه من الرؤساء المحليين والسفراء الاجانب ، بل كان يغزو رجال حزبه الاغنياء والمتوسطي الحال بما يفرضه عليهم من دفعات متتالية ، كان ينفقها على ملذاته وعلى شراء دار له في لبنان ، فرشها بالاثاث الفاخر .

وجار على اصحابه حتى اوصلهم الى الفقر ، وفي مقدمتهم عصام الدالاتى وعلي الايوبي وغيرهما .

وكانت له سلطة على اتباعه لا تتفق مع كرامة اي مثقف . فكان اتباعه المثقفون وغير المثقفين يتبعون نظاما عسكريا ويذهبون الى الكهوف للتمرن على اطلاق النار . واذا اصدر الزعيم امرا لاحدهم ، وجب عليه تلقيه واقفا بالتحية . وكان عليه تنفيذ الامر بدون مناقشة .

وانفرط عقد الحزب عندما هرب زعيمه في اواخر ١٩٥٦ . وراح الاعضاء يعرضون انفسهم على الاحزاب ، فاسرع الحزب الوطني الى ضمهم الى صفوفه . وانتخب هذا الحزب احدهم ، رشيد الدقر ، رئيسا لفرع دمشق . ثم انتهى بهم الأمر الى الخروج على طاعة صبري العسلي واثارة المشاكل داخل الحزب الوطني ، مما زاد في متاعبه واسباب هزاله . وظل الامر كذلك الى ان حلت الاحزاب بعد اعلان الوحدة ، فانطفأت شعلة هذا الحزب نهائيا .

اما الحزب السوري القومي ، فمؤسسه انطون سعادة الذي

الحزب السوري القومي

اشتغل لحساب المانيا ، ثم لحساب الولايات المتحدة الامريكية . وقد نجح في جمع عدد كبير من شبان سورية ولبنان المثقفين حوله ، يأتمرون بامره ويخضعون لقيادته خضوع المنتسبين للاحزاب الفاشية والنازية . وكانت مبادىء الحزب واهدافه ترمي الى اقامة دولة موحدة في سورية ولبنان والاردن ، نافية صبغة العروبة عن هذه البلاد. وسار سعادة في ركب حسني الزعيم واخذ منه الاموال والعتاد للقيام بثورة في لبنان واقامة حكومة ترتبط بسورية على مبادىء الحزب . الا ان رياض الصلح وبشارة الخوري كانا على علم بالخطر واستعداد لمواجهته ، فقمعا الحركة بشدة . وحين هرب سعادة ولجأ الى دمشق ، لم يسلم من خيانة حسني الزعيم - اذ سلمه الى الحكومة اللبنانية لقاء وعود وشروط . وحوكم في ليلة واحدة ، فحكم عليه بالاعدام ونفذ به الحكم رميا بالرصاص في الصباح الباكر .

الا ان زوال الزعيم لم يطح بالحزب ، بل ضعضعه مدة . ثم ما لبث ان رفع اعضاؤه رؤوسهم مجددا واشتدت سواعدهم . وصاروا يعملون في الخفاء ، متآمرين ضد سورية بالتعاون مع العملاء الامريكيين . فقتلوا العقيد عدنان المالكي في الملعب البلدي بدمشق ، فكان هذا الاغتيال مقدمة لضعضعة الجيش واركانه . الا ان المؤامرة لم تنجح في خطواتها التالية اذ القي القبض على المشتركين فيها ، فاعدم منهم ثلاثة ، وسجن الباقون . واقصي جميع الموظفين المنتسبين لهذا الحزب عن وظائفهم ، بحيث لم يبق للحزب كيان ذو شأن في سورية .

اما الحزب الشيوعي ، فلم يكن عدد ممثليه في مجلس النواب

الحزب الشيوعي

— خالد بكداش فقط — متناسبا مع عدد المنتسبين اليه في البلاد . وكان مرد ذلك الى عدم تقبل مجموع الناخبين للفكرة الشيوعية من جهة ، ومن جهة ثانية الى عدم استطاعتهم تبادل الاصوات مع اية مجموعة اخرى في البلاد كما كان يفعل سائر المرشحين . وكان ذلك لان الجميع آثروا الابتعاد عن كل ما يؤذيهم انتخابيا . وكانت الارتباطات القائمة بين الحزب في سورية وبين الاحزاب الشيوعية العالمية ، ثم الاعتقاد ان الايحاء يأتيه من موسكو ، حافزا حمل جمهور الناس على عدم انتخاب المرشحين الشيوعيين .

وكان الشيوعيون يدركون هذه الحقائق ، فلم يتقدموا للانتخابات الا في دمشق وحلب ، حيث يكثر المثقفون والعمال

المنتسبون اليهم . وكان يقاومهم ارباب الشعائر الدينية ويصمونهم بالالحاد كما كان الاشتراكيون يزاحمونهم في اوساط النقابات العمالية وفي البيئات المثقفة .

وفي عهد الانتداب الافرنسي كان الحزب الشيوعي يقاوم الاستعمار ويعمل في الخفاء بنشاط كبير . لكن هذا النشاط توقف حين تسلم الوطنيون الحكم ، ثم بعد الجلاء . لكنه عاد الى سابق عهده عندما عاد خطر الاستعمار يهدد البلاد من جديد . فتضافرت قوى الحزب الشيوعي مع القوى المتحررة الاخرى على الوقوف صفا متراصا ضد هذا الخطر . وكان موقف الحزب هذا هو الذي قربني منه ، على ما بيننا من تباعد في البرامج الاجتماعية . فهم يتبنون الطريقة الثورية ، وانا التزم جانب التطور والتقدم بخطى وئيدة تتناسب مع قدرتنا على السير الى الامام . اذ كنت مؤمنا بان تطبيق اي نظام حكم ، كالنظام السائد في الاتحاد السوفييتي ، سيؤدي في سورية او في اي بلد عربي الى انتشار الفوضى والانهيار الاجتماعي والاقتصادي . كما انه سيقضي على استقلال سورية . فالذي نحتاج اليه في الشرق العربي هو الجهاز العالي والوسط لادارة سياسة الدولة وتوجيه خطاها . ذلك لان مفاهيمنا وعقلياتنا لاتزال منطبعة بطابع النظام الموروث منذ قرون عديدة . فاذا اضفنا الى فقرنا في هذه النواحي فساد الاخلاق والطمع الفردي، تحقق لدينا خطر اقامة نظام لم يتم في الاتحاد السوفييتي الا بعد مضي اربعين عاما على الثورة ، وبفضل رجال افذاذ مثل لينين وستالين وهبتهم الطبيعة لروسيا . وانا ، مع اعترافي بان النظام الشيوعي النافذ الان في الاتحاد السوفييتي اوصل تلك البلاد الى ذروة المجد والبأس، الا انني كلما امعنت النظر في الامر وتفتحت عيناي امام مكاسب جديدة نالها السوفييت ازداد قناعة باننا نعرض بلادنا الى الهلاك اذا اتبعنا نظاما مماثلا ، لا سيما ان اطماع دول الاستعمار ما تزال قائمة ومستمرة في بلادنا .

موقفي من الشيوعية

وقد جربنا في سورية سياسة التوجيه الاقتصادي ، ففشلت في معظم الاحوال عندما انتقلت الى مرحلة التنفيذ المباشر . وهي لم تنجح الا حينما اقتصرت على حماية النشاط الزراعي والصناعي من المزاحمة الاجنبية ، تاركة للافراد القيام على حسابهم بالمشاريع الاقتصادية .

ولا اقول ، طبعا ، بفتح المجال امام الاحتكار واستثمار الحماية

الجمركية لتوفير الربح لصاحب المشروع على حساب المستهلك ، بل اقول بان تكون المشاريع التي يتجاوز راس مالها مئة الف ليرة سورية ملك شركات مساهمة — لا كالشركات المساهمة الصورية التي يلجأ الى تأسيسها بعض المتمولين فيشركون ابناءهم وبناتهم واقرباءهم ويولونهم الادارة والعمل — يسهم فيها عمال المعمل اولا ، وسواهم من الذين يملكون مالا لا يستطيعون استثماره بانفسهم ، اما لجهلهم او لقلة مالهم وعدم كفايته . وهذا نوع من اشراك المجموع في المشاريع العامة يترك للذين يربحون من اعمالهم الخاصة او يوفرون من رواتبهم فرصة استغلال هذه الاموال لزيادة دخلهم الخاص . وهم بذلك يلقون مكافأة على جهودهم ونشاطهم .

اما في البلاد الشيوعية، فلا يسمح لهؤلاء بالافادة مما يوفرونه. اذ انهم مضطرون ، بحكم الواقع ، الى انفاقه . وهذا الانفاق يكون، في الغالب ، على الكماليات . ذلك ان اسلوب التوفير لمواجهة الظروف القاسية غير متيسر لهم ، الا اذا اختزنوا المال نقدا متداولا. وهذا المال قد تنخفض قيمته او تزول كلها .

صحيح ان الخلاف في هذه الامور يعود ، في الاساس ، الى كيفية النظر الى حق الملكية التي ادعمها ويشجبها الشيوعيون ، والتي اعتبر الشعور بها وبشرعيتها حافزا لزيادة الجهد ولزيادة الدخل الفردي ، طمعا بالتنعم به وبتوريثه . اما اذا اعتبر الناس جميعا انفسهم موظفين في شركة كبرى اسمها « الدولة » ولم تكن من نصيبهم الخاص نتائج نشاطهم الاضافي ، فلا ريب في ان همتهم وعزمهم لا يتجاوزان الحد الادنى الذي تتطلبه الوظيفة والعمل ، لا سيما اذا رأوا ان ما ينالونه من ترفيع في الرتب وزيادة في الراتب يقتصر عليهم ولا يعود منه على اولادهم اي نصيب .

ولرب قائل بان نظرية الملكية والارث هي من اسباب المنازعات بين الناس ، وبأنها من مخلفات الماضي التي لم تعد صحيحة الآن ومن رواسب العادات التي الفها الاغنياء المالكون ، بدليل زوالها من عقلية المواطن في الاتحاد السوفييتي . لكن الرد على ذلك ليس بعسير . فنزعة التملك لم تنقرض بتاتا في الاتحاد السوفييتي وخصوصا في الاموال المنقولة . ويكفينا ان ندعو مواطنا منهم الى خارج بلاده ليقارن بينها وبين البلاد الاجنبية . فما ان يشاهد الفرق في سوية العيش ، حتى يميز بين ما في بلاده وبين هناءة العيش في مجتمع حر ، يستثمر فيه الفرد جهوده بنفسه ، وينعم بلذة العيش

كما يشاء ويهوى ، ويقتني من مباهج الحياة ما يريد دون التقيد بما يصنع في بلاده من المصنوعات ، ويعيش في الكون حيثما طاب له العيش ، دون شعور بانه مسجون ضمن حدود دولته .

ومن جهة ثانية ، فان النظام الاشتراكي الشيوعي قضى على الفقر والعوز . فلو سرت في شوارع اي بلد شيوعي لا تشاهد متسولا بائسا يستعطفك كما في العديد من شوارع البلاد غير الشيوعية . وانت لا ترى عاطلا عن العمل ، يلتاع من خلو ذات يده مما يشتري به طعاما يسد به رمقه ورمق عائلته . جميع الناس يعملون ، رجالا ونساء ، كأنهم آلات . وهم كلهم موظفون وعمال في الشركة الكبيرة : « الدولة » ، دون ان يتعبوا انفسهم بالتفكير في ما يتعلق بمستقبلهم .فلو عجزوا عن العمل ، لمرض او لشيخوخة، فامامهم دور العجزة . اما عن مستقبل اولادهم — وهي معضلة تشغل بال العائلات كثيرا في النظام غير الشيوعي — فالشركة تتعهد بتوظيفهم وتشغيلهم . وهكذا نرى ان وسيلة العيش مضمونة لهم ولاولادهم واحفادهم . وما اسعد قوم يخلو بالهم مما يتعبه من تحري وسيلة العيش لهم ولابنائهم رجالا ونساء ، ومن الحصول على الطب والعلاج اذا ما مرضوا ، ومن اسباب التعليم لاولادهم. فماذا يبقى ، بعد كل هذا ، من النفقات المطلوب من رئيس العائلة تامينها ؟ الاكل ؟ فهو رخيص . والمسكن ؟ فهو ايضا موفور بأجور زهيدة . واللباس ؟ فهو كذلك بخس الثمن .

رايي في انظمة الحكم

واما ما يلي هذه النفقات فهو كمالي ،يؤمنه الفائض من الدخل. فالشخص الذي لا يتطلب العيش في نعيم ، او في الاستزادة من وسائل الترف ، يكتفي بهذا القدر اللازم لحياة عادية بسيطة مكتملة في الحاجات الاساسية . لكن ، هل الناس كلهم او اكثرهم يقتنعون بهذا القدر ، ام انهم بطبيعتهم الغريزية تواقون للعيش بسوية اعلى وابهج من تلك الحياة المتوسطة ؟ وهل يكتفي الانسان بالاكل والشرب واللباس والمأوى ويتنازل ، مقابل ذلك ، عن حريته الفردية والسياسية ، فيطبق فمه اذا ملأوه طعاما ولو لذيذا ، على قاعدة « اطعم الفم تستحي العين » ؟ ان طبيعة الانظمة المبنية على نظرية تولي جهاز الحكومة ادارة شؤون الرعية قسرا وبدون مشورة،تقضي بان يتنازل الفرد عن حريته لقاء ما يوفر له من وسائل العيش التي ذكرناها . فمن الناس من يقبل بذلك طوعا وكسلا ، ومنهم من يرفضه ويفضل اللقمة غير المكفولة ، شرط تمتعه بنعم الحريات !

كل ما اسلفنا لا يخرج عن دائرة المناقشات والمجادلات النظرية ، اذ ان لكل نظام حسنات ومساوىء . وترجح حسناته على مساوئه او على العكس ، بحسب الزمن والبيئة ، وسوية الحاكم والمحكوم العلمية والاجتماعية والسياسية ، والعادات التي كرسها التاريخ المشترك . فليس هنالك نظام هو المثل الاعلى ، وليس هنالك نظام سيء من جميع الوجوه . فمن يندد بالشيوعية ويقذفها باتعس الوصمات جائر ، ومن يتهم الراسمالية بانها سبب تعاسة البشر مبالغ . فالحقيقة هي بين اليمين واليسار ، في نقطة وسط تقرب من هذا المحور او ذاك بنسبة ما يحتويه كيان الامة من عوامل ذكرنا بعضها واهملنا البعض الآخر . وهذا المحور نفسه لا يمكن ان يكون مستقرا دائما ، فهو دائب الحركة لان عوامل الحياة هي ايضا غير مستقرة على حال . وهكذا يخطىء من يظن بان اي نظام هو ثابت الاركان لا تزعزعه سوى الثورات . فأي نظام هو نظام سيء اذا كان على درجة قصوى من الركود والصلابة امام التيارات المتجاذبة . فبقدر ما يكون النظام مرنا قابلا للتعديل والتطوير ، يكون نظاما حيا مكتوبا له طول البقاء مع مراعاة سنة التطور طبعا . وهو كالجسم الانساني ، اذا لم تتغلب عليه البيئة الخارجية ولم تنفذ الى داخله الميكروبات ، يكبر ويترعرع ويقوى حتى تأتي دورة التوقف ثم دورة الهزال ثم دورة الزوال . ولا يطول عمر الجسم الا بنسبة بنيته الاصلية ومتانة اعضائه وانسجام عمله والاحتياطات المتخذة لمنع دخول الفساد ولجعله قادرا على تحمل المتاعب ومواجهتها . اما اذا كان صلبا كالعود اليابس ، فلا يقطع من الطريق الا شوطا قصيرا .

وكذلك ، فأية فائدة من الجدل حول منافع هذا النظام او ذاك . فليست القناعة ، ثم الاختيار الحر ، من وسائل تثبيت اقدام الانظمة في دولة ما . وهل الشعب بمجموعه هو الذي يختار النظام الذي يريده لنفسه ، ام ان جماعة ما هي التي تتولى الاختيار والفرض ؟ اما الشعوب ، فتصرفها ينحصر بالسالب ، اي بتحطيم العروش وازاحة الكراسي وقلب الامور راسا على عقب . ويأتي بعد هذه الفترة الصاخبة المهدمة من يفرض نفسه : شخص او جماعة يتناحرون في البدء ويتزاحمون على من منهم يناله شرف خدمة الامة وتوجيه خطاها في الصراط المستقيم . فيضرب بعضهم اعناق البعض الآخر ولا يرتوون من الدماء الا بعد ان تغص الساحة بالقتلى والجرحى . فينتصب ، عندئذ ، من كان اقوى من سواه ، يدا او

تفكيرا ، ويمسك بزمام الزعامة وينادي بأنه خادم الامة المطيع ، ويعد بالعمل للصالح العام دون الصالح الخاص . فتصدقه الجماهير وتصفق له ، لان الجماهير تحب ان تصفق وان تسير وراء زعيم قوي الحنجرة يطلق منها الصيحات المدوية ، ولانها كسولة في طبيعتها . فهي تفضل ان تترك مسؤولية اختيار سلوكها وقيادتها لمن تمنحه ثقتها وتوليه حبها او حتى عبادتها . وهكذا يلتف فورا حول القائد جماعة من اصحاب الاغراض السامية ، والاهداف البريئة ، كالزعيم تماما ، ويرفعون من شأنه دعاية وتهويلا . ذلك لان بقاءهم منوط ببقائه ، وانتفاعهم معلق على استمرار زعامته . فتؤلف الجمعيات التشريعية ، او مجالس الثورة ، او الندوات الوطنية ، وتعصر الرؤوس لاختراع احسن واوفى وارفع نظام يكفل للشعب الهناءة والسؤدد والحرية والنعيم ! فتجري الانتخابات ، أو لا تجري فتملأ المجالس بالتعيين . ويبدأ النظام الجديد خطواته الاولى بدق الطبول وحرق البخور في مدح اسسه واظهار محاسنه . ثم تأتي الاحصاءات يرصفها الخبراء ، فاذا الخير عائم ، والعدل سائد ، والناس في بحبوحة وارتياح يقارنون ما هم فيه من نعيم بما كانوا عليه من شظف العيش . وتنادي الابواق بعبقرية الزعيم ، او الرئيس او الملك ، الذي اختاره الشعب وحمله عبء المسؤوليات ، فأتى بالمعجزات وادى الامانة . ليعش .. .يعش ... يعش !

اما الذين لم يقتنصوا النظام وسيلة لاشباع نهمهم ، فيوحدون صفوفهم مع من ساءهم الفساد الذي استشرى — ولا بد للفساد ان يستشري كلما طال عهد الحكم . اذ انهم لم يجدوا تطابقا بين النظام وبين ما يعتقدون انه ملائم لبلدهم . وهكذا تتحد القلوب جميعها وتتضافر الجهود على أختلاف اصحابها ، مشربا وعقلية ومركزا ، فتبدأ المعارضة جهرا اذا كان الحكم ديموقراطيا ، وسرا اذا كان دكتاتوريا . فيصير الابيض اسود ، والخير سيئة . وفي بعض الحالات تكون المعارضة على حق ، فتنتشر مخازي رجال الحكم وتسود وجوههم — وهذه هي الطريقة المتبعة عادة لتقويض الحكم نفسه — وتطلق الحكايات والشائعات المغرضة او المختلقة ، مع ذكر وقائع مدعومة بأرقام وباسماء . وتشتد الحركة شيوعا ثم عنفا ، حتى يصبح الراي العام مختمرا ومستعدا للثورة . وعندئذ تخلق الحادثة التي يطفو بها الكاس — اختلاقا او حقيقة — فيثور الشعب ويهدر في الشوارع هدير الماء المخزون وراء سد متين ، فينساب في الطريق والوديان ، جارفا كل ما يقف في وجهه .

واما الحاكم الذي قامت الثورة ضده ، فأما ان يهرب ويكفي الناس شره وخيره ، واما ان يقاوم فينهار عليه صرح الحكم ، مقتولا او سجينا . فيتداعى معه النظام الـذي خلقه او ورثه عن آبائه واجداده .

وهكذا تتجدد الحكاية . فيأتي زعيم جديد ، ويصدق الشعب قوله الجديد !

والتاريخ كما يقولون ترديد مستديم ، تختلف فيه الاسماء وتتنوع الحوادث ، لكـن الاصل هو هو : شعب محكوم ورئيس حاكم . والرئيس اما فرد او جماعة . فاذا كانوا مدنيين سموا انفسهم حزبا ، او عسكريين ادعوا انهم سياج الامة وحماة الديار !

اسباب الانقلابات خارجية ايضا

لقد افترضنا ، فيما سبق ، ان الامر محصور ضمن حدود الدولة بين فئتين تواقتين للحكم في شعب آمن . لكن لا يغرب عن بالنا ان ثمة دوافع لزحزحة المتربعين على كراسي الحكم واقامة نظام جديد ، لا تمت الى الوطن بصلة . فهي مصالح دولة اجنبية تملك شركاتها اراضي زراعية تغرسها اشجارا مثمرة ، كشركة الفواكه الامريكية ، او مناجم وآبار بترول تستثمرها ، او مصارف وبيوتات تجارية ومرافىء وما الى ذلك من المرافق الاقتصادية . وليس امر الدولة المستعمرة محصورا في احتلال بلاد اخرى واستثمارها فحسب ، بل يكون ايضا كيانا اقتصاديا يعيش ويترعرع فيها كالعلق . اما الدولة ذات الفكرة الاستعمارية فتعتبر نفسها وصية على مصالح رعاياها وشركاتهم . وهي لا تكتفي بالقيام بالمساعي الحثيثة لايصالهم الى حقهم اذا مس ، بل هي تهدد باستعمال القوة ، برا وبحرا وجوا ، كما حصل بشأن قناة السويس في ١٩٥٦ . اذ حشدت الاساطيل وانزل المظليون لاحتلال مصر وارغامها على صرف النظر عن تأميم قناة السويس . وما الانقلابات التي منيت بها بها سورية منذ ١٩٤٩ حتى الوحدة سوى شواهد ظاهرة للعيان على نوع من انواع التدخل الاجنبي لقلب انظمة الحكم التي لا يساير صاحب السلطان فيها سياسة تلك الدولة الاجنبية . فتعمل بوسائلها المتعددة على ابعاده عن الحكم واقامة من تتوسم فيه الخير .

وفي هذه الحال لا تستمد الانقلابات سلطانها من صميم رغبة الامة ، بل يكون مرده الى مزاج المتزعم الجديد والى الغاية التي يهدف الاجنبي اليها في اثارته الفتنة وقلبه النظام السابق .

واذا التفتنا حولنا وراجعنا احداث الاربعين عاما في البلاد

العربية ، اي منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى واقامة الحكومات والدويلات المستقلة ، او شبه المستقلة ، في ظل الانتدابين الافرنسي والبريطاني الى الوقت الحاضر ، لبـــدت الحقائق التالية امامنا بوضوح :

الاردن : بعد ان كادت مصر تضع يدها على مقدراته في ١٩٥٧ فتفوز بخلع الملك حسين واقامة جمهورية موالية لسياستها ، كسر الملك الطوق الذي اوشك ان يخنقه . فعزل قواد جيشه المتآمرين مع المصريين والسوريين ، واخرج القوات السورية من بلاده . وهكذا استعاد سلطته وابعد الخطر الجاثم . وهو بهذه الانتفاضة كان معتمدا علـــى العون والدعم البريطاني ـــ الامريكي ، كما تأيد عمليا حينما شعر بخطر اطباق العراق والجمهورية العربية المتحدة عليه اثر الثورة العراقية ، فجاءته القـــوات الانكليزية محمولة بالطائرات .

العراق : ان الانقلابات العديدة التي حصلت فيه لم تكن بريئة من تدخل البريطانيين ، كلما شعروا بان نظام الحكم والقائمين عليه لم يعودوا يأتمرون بأمرهم . واجلى مثال على التدخل الاجنبي هو الذي قامت به القوى العسكرية الانكليزية ضد حكومة رشيد عالي الكيلاني في ١٩٤١، حين اقصته عن الحكم واعادت الوصي عبد الاله ونوري السعيد . ولم تبد بعد خفايا الانقلاب الذي قام به الزعيم عبد الكريم قاسم في ١٩٥٨ ـــ هذا الانقلاب الذي اطاح بالعائلة الهاشمية المالكة وادى الى قتل افرادها ونوري السعيد . لكننا لا نستطيع انكار تدخل الجمهورية العربية المتحدة ضد نظام الحكم في العراق ، وذلك في ثورة الموصل . اذ شجعت عبد السلام عارف ورشيد عالي الكيلاني عـــلى التمرد ، ثم عملت على اغتيال عبد الكريم قاسم . وما هذه الحوادث الا امثلة على انواع تدخل الدول الاجنبية ، ولو كان بينها دولة عربية شقيقة .

لبـــنان : وعانى لبنان من تدخـــل حسني الزعيم في شؤونه وسعيه الى اثارة الفتنة على يد انطون سعادة لقلب حكومة رياض الصلح وبشارة الخوري المعادية لفرنسا . وما الثورة التي اشتعلت نارها في صيف ١٩٥٨ ، الا صفحة من صفحات تدخل دولة مجاورة في شؤون جارتها لحملها على الرضوخ لها والارتماء تحت اقدامها . فأطيح بحكم كميل شمعون المـــالىء لسياسة بريطانيا والولايات المتحدة وجيء باللواء فؤاد شهاب وبحكومة رشيد كرامي الموالي للرئيس عبد الناصر . ولم تنفع الضـــحايا التي وقعت بالمئات او

الخسائر التي بلغت الملايين من الليرات في حفظ استقلال لبنان كاملا . فالحكم الجديد الذي ولد بعد انتهاء عهد شمعون ليس بالراضخ مئة بالمئة لمشيئة عبد الناصر . لكننا لا نستطيع اعتباره متحررا تمام التحرر من اي نفوذ مصري !

وظهر ، فيما بعد ، ان ما كان يؤخذ على شمعون ، اي مسايرته للغرب ، لم يكن السبب الحقيقي لاثارة الفتنة عليه . وذلك بدليل مسايرة مصر للولايات المتحدة فيما بعد ، في محاربة الشيوعيين والتنكيل بهم اكثر مما فعله شمعون او ما تجرأ على فعله نوري السعيد نفسه . لكن الهدف الحقيقي كان حمل لبنان على الدخول في الوحدة باسم الاقليم الغربي ، او القبول على الاقل بالوصاية والائتمار بأوامر القاهرة في سياسته وذلك وفقا لخطة جمع الشرق العربي باكمله تحت قيادة رجل واحد .

المملكة الحجازية : هذه المملكة اسسها المرحوم الشريف حسين بن علي ثم انتقل عرشها الى ابنه الاكبر الملك علي . وبعد ان قامت بالدور الذي ارادته بريطانيا ، وهو اثارة الفتنة في ١٩١٥ ورفع راية العصيان ضد امير المؤمنين وخليفة المسلمين ، لم تتمش على الخطة التي رسمها لها ساسة لندن . اذ راح الملك حسين بن علي يطلق التصريحات عن المعاهدة التي يدعي انه ابرمها مع ماكماهون ويطالب لنفسه بعرش مملكة عربية تضم كل الاراضي المأهولة بالعرب في شبه الجزيرة العربية ، ومن جبال طوروس الى عدن ، ومن حدود العجم الى البحر المتوسط ، بما في ذلك لبنان وفلسطين . وكانت بريطانيا منحت لبنان وسورية لفرنسا واعطت لليهود وعد بلفور المشهور . ولم يستمع الامير فيصل بن الحسين الى نصائح بريطانيا بالاتفاق مع الافرنسيين . فتردد في عرض ما تفاهم عليه مع كليمنصو ، وذلك تحت ضغط جماعة حزب الفتاة المسيطرين على سورية في ١٩١٩ — ١٩٢٠ ، ثم نادى بنفسه ملكا على سورية في ٨ آذار ١٩٢٠ . وبذلك قطع حبل التفاهم مع فرنسا وبريطانيا . وانتهى الامر بالحسين بن علي ان اخرج من دياره ونفي الى قبرص ، حيث مكث مدة . ثم عاد الى عمان ، وهناك قضى نحبه منزلا اللعنات على بريطانيا وساستها الكذابين .

واما ابنه فيصل، فاخرجه الافرنسيون من سورية اثر احتلالهم دمشق في ٢٤ تموز ١٩٢٠ . فلجأ الى الانكليز الذين انتشلوه من الهاوية التي وقع فيها ، بتنصيبه ملكا على العراق ، الى ان توفي

في ١٩٣٤ بالسم الذي يزعم البعض ان الانكليز دسوه له .

ولم ينج الملك علي بن الحسين ، بعد ان انتقل العرش اليه ، من الدسائس البريطانية . وظل يعارك صروف الزمن ويقاوم سلطان نجد ، عبد العزيز بن سعود ، حتى هزمت جيوشه واضطر للابحار من جدة ، تاركا بلاده الحجاز التي انضمت الى نجد واصبح اسمها المملكة العربية السعودية .

ايران : وما كانت ايران بمنجى من التدخل الاجنبي . وما انقطعت الفتن والثورات الا بعد ان اتفقت روسيا وبريطانيا على تقسيم البلاد الى منطقتي نفوذ ، وذلك في ١٩٠٧ . وظل الامر هكذا ، رغم جلاء النفوذ الروسي بعد ثورة ١٩١٧ ، الى ان قام الجنرال رضا بهلوي بانقلابه الذي اودى بالعائلة القاجارية المالكة ، ثم نصب نفسه امبراطورا . وحين لم يسر في الحرب العالمية الثانية وفق رغبة بريطانيا ، في اعلان الحرب على المانيا ، خلعته عن العرش وارسلته منفيا الى جزيرة سيشل حيث توفي مقهورا .

اما وثبة مصدق الوطنية ، فكانت ضد النفوذ البريطاني الذي قسا على ايران ولم يترك لها حتى حصة صغيرة من مورد النفط . فأمم مصدق ينابيع البترول ومصافيه ، لكنه خسر معركة بيعه في الاسواق الاجنبية . اذ اصدرت لندن اوامرها الى سفنها الحربية بتوقيف اية باخرة تحمل نفطا ايرانيا ومصادرته . وتجمع النفط في الآبار والخزانات ، فأصبح مصدق كالغني الذي يملك خزائن مليئة بالجواهر ولا يستطيع بيعها والتصرف بها والانتفاع بثمنها . وساءت الامور الاقتصادية في ايران الى ان تدخلت الولايات المتحدة الامريكية واثارت على مصدق فتنة عسكرية قادها الجنرال زاهدي . فألقى القبض على الزعيم الوطني وزجه في السجن وحاكمه وحكم عليه . وقبضت امريكا ثمن تدخلها حصة في شركة النفط الجديدة ، تعادل الربع !

رائحة النفط تفوح بعد كل انقلاب

تلك كانت امثلة على التدخل الاجنبي في الشرق الاوسط ، في القرن العشرين . اما ما حصل في القرون السالفة ، وفي بلاد عديدة اوروبية وآسيوية وافريقية وامريكية ، فهو يخرج عن نطاق هذه المذكرات . ويكفي القارىء مراجعة كتب التاريخ للاستزادة من الحوادث العجيبة المثيرة .

وفي اكثر الاحوال نشم رائحة البترول تفوح بعد كل انقلاب ،

وخاصة انقلاب حسني الزعيم في ١٩٤٩ ضـــد الحكومة التي ما استطاعت حمل المجلس النيابي على تصديق اتفاقية امرار البترول السعودي في الاراضي السورية . وكان موقف المجلس هذا من الاسباب الرئيسية لتدخل الولايات المتحدة بتشجيع حسني الزعيم على انتزاع السلطة . وثمة من يعتقد حتى اليوم ان انقلابه كان ضد مساوىء الحكم ، في حين انه جاء ، في الواقع ، ضد الحسنة الوحيدة التى بدت من ذلك المجلس النيابي .

واما موقفي من تلك الاتفاقية فكان في الحقيقة سلبيا ، رغم اني قدمتها الى المجلس وطلبت التصديق عليها . اذ اني كنت مطمئنا الى ان المجلس سوف يرفضها حتما ، وبذلك اتجنـــب معارضة تمسك شكري القوتلي بعرضها على المجلس ، واثقا بأنه سيوافق عليـــها .

ومصيبة هذا الشـــرق الادنى هي في وفرة النفط في اعماق ارضه ، وفي انه واقع في المنطقة الستراتيجية الحساسة التي يرنو اليها كل ذي طموح . فقبل عبد الناصـــر كان هنالك الافرنسيون والبريطانيون والروس والامريكـــــان ، وقبل هؤلاء غليوم الثاني ونابليون الاول والثالث ومحمد علي باشا ، حتى الغزاة الاقدمين ، كلويس التاسع وتيمورلنك والاسكندر ، وسواهم ممن يطول بنا تعـــدادهم .

وقد جاء جميع هؤلاء الغزاة الى الشرق العربي ، كان في ارضه مغناطيسا يجذب نضوات خيولهم . لكنهم جميعا ــ مهما طال بهم او بجماعتهم المقام ــ عادوا ، في آخر الامر ، مخذولين ، خائبين . وذلك ليس لان البـــلاد حاربتهم واخرجتهم بنفسها فحسب ، بل لان التنافس الدولي على هذه المنطقة جعل كل محتل يبدو في نظر الآخر غاصبا متعديا يجب اخراجه منها .

واليكم الامثلة من حوادث جرت في عصرنا الحاضر والعصر الســـابق :

استهدف نابليون امبراطور فرنسا احتلال الهند والحلول محل الانكليز فيها . لكن مصر استهوته ، فظل فيها بعد ان حاول اغتصاب سورية . لكنه فشل في محاولته هذه للمقاومة الطويلة التي ابدتها عكا . فدفعه طمعه بالسيطرة على فرنسا الى الاسراع في العودة . فترك جيشه يجابه المصاعب ، حتى انحسر الغزو الافرنسي عن مصر نهائيا ، بفضل مقاومة بريطانيا له .

ثم حاول محمد علي وابراهيم باشا الحاق سورية بمصر . وبعد ان دحرت قواهما الجيوش التركية واستقام الامر لهما احدى عشرة سنة ، اضطرا الى الانسحاب تحت ضغط الانكليز .

وحاول نابوليون الثالث ، ابن اخ نابوليون الاول ، مد اصابعه الى سورية في ١٨٦٠ ، متذرعا بحماية المسيحيين اثر الفتنة التي نشبت بينهم وبين الدروز الذين كانت بريطانيا تعتبرهم زبائنها ، فانزل قوات عسكرية الى لبنان وسجل اسمه على لوحه حجرية الى جانب اللوحات العديدة التي نقشها الغزاة عند مصب نهر الكلب . الا ان بريطانيا لم تمكنه من تحقيق هدفه واضطرته الى الانسحـــــاب .

وانتهى القرن التاسع عشر دون ان يحقق الاستعمار سوى انتصارات جزئية . فاحتلت بريطـــــانيا جزيرة قبرص والحقتها بممتلكـــاتها ثمنا لاستعـــدادها للدفاع عن ســـلامة الامبراطورية العثمانية . ثـــم احتلت عدن وجنوب الجزيرة العربية ونصبت فيها امارات عربية خاضعة لسلطانها .

وبسطت نفوذها على الكويت وعلى جزيرة البحرين .

اما في مطلع القرن العشرين ، فلم تتمكن اية دولة من الدول الطامعة في الشرق الادنى ، وهي روسيا وفرنسا وبريطانيا ، من تحقيق احد اهدافها الى ان اعلنت الحرب الكبرى في ١٩١٤ ، فعقدت هذه الدول فيما بينها اتفاقية ظلت سرية حتى افشـى امرها الروس بعد ثورة ١٩١٧ . وبمقتضى هذه الاتفاقية ، كانت استانبول ، كما كان مضيقا البوسفور والدردنيل وجـــزء من الاراضي التركية المتاخمة لروسيا ، حصة روسيا . اما كيليكيا وسورية ، بما فيها لبنان والموصل ، فكانت نصيب فرنسا . واحتفظت بريطانيا لنفسها بالعراق وبالجزيرة العربية . الا ان انهيار روسيا وانسحابها من جبهة الحلفاء وانشغالها بتركيز دعائم ثورتها ، ازال عن تركيا خطر صيرورة عاصمتها في يد الاجنبي . ثم عقدت معاهدة سايكس — بيكو بين فرنسا وبريطانيا ، احتفظت فيها الدولتان بالمناطق الآنفة الذكر على ان تبقى فلسطين دولية .

وعندما انتهت الحرب الكبرى في ١٩١٨ ، واجتمع كليمانصو رئيس وزارة فرنسا مع لويد جورج رئيس وزارة بريطانيا ، تمكن هذا الاخير من استخلاص منطقة الموصل ، بما فيها من آبار نفط ، وضمها الى العراق . كما حصل على موافقة فرنسا على قلب

وضـع فلسطين من منطقة دولية الى منطقة تحت الانتداب البريطاني ، لقاء قبول بريطانيا بانتداب فرنسـا على سورية ولبنان وحملها الامير فيصل على القبول به والاتفاق مع كليمانصو على ذلك .

الا ان هذا التفاهم لم يدم طويلا ، فنشبت ثورة جبل الدروز بسورية في ١٩٢٥ . ودعم البريطانيون هذه الثورة سرا . وظلت السياسة البريطانية في سورية ، ثم في لبنان ، تناوىء وجود فرنسا فيهما ، حتى ارغمت فرنسـا على الجلاء عن البلاد في ١٩٤٥ .

وقبل ذلك ارغمت بريطانيا فرنسا على التخلي عن جزء من سورية ، وهو لـواء الاسكندرون ، الى تركيا . وكان ذلك ثمنا للمعاهدة التي عقدت بين هذه الدول الثلاث في ١٩٣٩ ، انحازت فيها تركيا الى الجانب البريطاني ـ الافرنسي . فظلت على الحياد في مطلع الحرب العالمية الثانية الى ان قاربت على الانتهاء . وعندئذ اعلنت الحرب على المانيا ، حين لاحت تباشـير انتصار الحلفاء عليها . ولم يكن موقف فرنسا العدائي من حلـف بغداد ، عند تاسيسه ، متأتيا من حرصها على ابعاد دول الشرق العربي عن الاحلاف ، بل لانها لم تدع للاشتراك فيه . فسعت الى احباطه ، وعلى الاقل ، الى اقامة العثرات في طريقه ، انتقاما من موقف بريطانيا العدائي منها في ١٩٤٥ ، حين اضطرتها الى الانسحاب من سورية ولبنان . ولولا قيام مصر بتأميم قنـاة السويس ، لظلت فرنسا تساندنا ، نحن ومصر والسعودية ، على معارضة حلف بغداد . لكن التأميم كان ضربة قاسية اجبرتها على التوقف عن معارضة سياسة بريطانيا في الشرق الادنى والاتفاق معها على مهاجمة مصر واسقاط حكم عبد الناصر المناوىء لها ولبريطانيا .

وثمة عـدد من المؤلفين يؤكدون ان الولايات المتحدة كانت تدفع عبد الناصر في الخفاء لتغيير الوضع الحقوقي لقناة السويس واقامة شركة عالمية جديدة تسهم الولايات المتحدة فيها ، بعد ان تكون الهيمنة الافرنسية ـ البريطانية قد ازيلت عن شركة قناة السويس التي يملك معظم اسهمها البريطانيون والافرنسيون . وسواء كانت هذه التاكيدات مؤتلفة مع الحقائق ام لا ، فالنتيجة بعد انتهاء ازمة القناة كانت الغاء امتياز الشركة المذكورة وقيام الادارة المصـرية .

واما جلاء القوات البريطانية عن مصر ، فمصر مدينة للولايات المتحدة الاميركية بجزء كبير من اسباب حصولها عليه .

ولا ريب في ان امور الشرق الادنى لم تكن لتسير وتتبدل وتتطور كما حصل ، لولا اختلاف الدول الكبرى . فطمع بريطانيا وفرنسا وتنازعهما المستمر وتدخل الولايات المتحدة ضدهما باسم معارضة الاستعمار وقلع جذوره ــ ولكن في الحقيقة للحلول اقتصاديا محلهما ــ ثم اظهار الاتحاد السوفييتي قوته ودفاعه عن الدول الصغرى ومساعدتها على الوقوف ضد الاستعمار ، مكن الدول العربية في الشرق الادنى من الحصول على استقلالها ومن امتلاك وسائل الدفاع عنه .

واما شعوب افريقيا المسلمة وغير المسلمة ، العربية منها وغير العربية ، فقد افادت ايضا من هذه الخلافات الدولية . فنالت كل من ليبيا وتونس والمغرب وغينيا وغانا واكثر مستعمرات فرنسا استقلالها ، وباتت غيرها على وشك الاستقلال ، كقبرص ومالطه والجزائر والكونغو البلجيكي .

والاستعمار الذي تفشى داؤه وترعرع كيانه في القرن التاسع عشر ، بفضل تفاهم الدول الكبرى على اقتسام مناطق النفوذ في العالم ، عاد يلملم ذيوله ويتقلص في اواخر النصف الاول من القرن العشرين . والامل معقود على ان لا ينتهي العقد السابع منه حتى تزول آخر ركيزة منه في العالم ، فتصبح الشعوب كلها حرة غير مستعبدة ، وتبذل جهودها ليس في معركة الدفاع عن استقلالها بل في معركة الحياة الرغيدة ، حيث يعم الرخاء ويؤمن لكل فرد القوت والصحة والعلم في ظل الحرية والسلام .

الفصل الثالث

الصحافة في سورية

الوسائل والطرق التي يستخدمها عمـــلاء الدول الاجنبية وممثلوها في البلاد التي يريدون توجيه سياستها الخارجية او تليها ، او دعم الحكم القائم او ابعـاده ، تختلف بالنوع والكيفية اختلافا كبـيرا . وقد جربتها في بلادنا جميع الدول العربية ، باستثنـاء ليبيا والسودان . ونحن في المقابـل (اعني الجمهورية العربية المتحدة) لم نقصر في رد التحيـة بأحسن منها ، ان لم نكن نحن البادئين بها . ولا تنفرد سورية بهذا الامتياز ، فقد ورثته عن تركيا حينما كانت تابعة لها . فقنصلا بريطانيا وفرنسا كانا جاهدين في تشجيع الشبان العرب على المطالبة بالاصلاحات الداخلية ، وبنوع من الحكم اللامركزي ، او حتى بنعمة احتـلال الجيوش الافرنسية لسورية ! وقد لاقت هذه الدعوة آذانا صاغية لدى المجتمع السـوري الناهض ، فاندفع اكثرهم من نية حسنة الى الانتماء الى الجمعيات السرية والعلنية. واستغل بعضهم هذه النهضة ليقبض من الافرنسيين والبريطانيين مبالغ من المال انفقها على الملذات وطاولات القمـار . وانتهى الامر بشنق هؤلاء واولئك في حملة القمع التي تولاها جمال باشا في سورية ولبنان في اوائل الحرب العالمية الكبرى .

وغالبا ما يكون رئيس منظمـة التجسس والدعاية الاجنبي سفير الدولة او قنصلها . وقد يكون شخصا آخر اوكل اليه هذا العمل .

تجــنيد شبكة العملاء والوسطاء

فأول عمل يقوم به ما يسمى بـ « العميل » هو ايجاد حلقات تربطها شبكة من الوسطاء . ويختلف عدد العاملين في كل حلقة من الواحد الى العشرات . اما سبب خلق هذه الحلقات ، فهو اولا الخوف على الاجراء ان يقعوا كلهم في فخ واحد ، فيفتضح امرهم دفعة واحدة ويفتقدهم العميل . واما اذا كان العدد فردا او ثلاثة ، فيقتصر الضرر على هذا العدد اذا اكتشف امر الحلقة . ومن جهة

ثانية ، فان لكل حلقة عملا خاصا في ناحية ما لا يدري المنتسبون للحلقات الاخرى ماهيته . وقد يعين شخص ما ليكون همزة وصل مع زيد من الزعماء او النافذين او فريق من الناس كالموظفين او الضباط او العمال .

ويكون العميل هو المركز الذي تتصل به الشبكات ويتلقى منه الاجراء او الوسطاء الاوامر والتعليمات والتوجيه ، لتكييف دعايتهم ونشرها في الاماكن المخصصة لهم .

وقد لا يتصل الاجير بالناس مباشرة ، او لا يكون بينه وبين زعيم ما اية معرفة او اي اتصال مباشر . ويكون ذلك اذا كان الاجير معروفا باتصالاته المشبوهة . لان من غير المستحسن دفعه في مسالك تعرضه للفضيحة ، فتنعدم بذلك فائدته ، فهو يتصل بشخص آخر ، وهذا الاخير يتصل ايضا بشخص ثالث . وفي كل اتصال تخف الشبهة حتى تصل الحلقة الى شخص موثوق به يتلقى الايعاز ببساطة فيعمل به ، دون ان يخطر في باله انه سائر بايحاء اجنبي ، وانه ينقل بهذه الصورة ما يراد نقله من دعايات وتوجيهات يتلقاها الناس كأنها صادرة عن قلبه الطيب وشعوره الوطني السليم .

وهكذا تنتشر الاشاعات المغرضة التي يطلقها عميل الاجنبي ، فتعمل لدى الافراد ، وحتى لدى الزعماء ، عملها المقصود ، دون ان ينتبه احد لمصدرها .

ومهمة الاجراء تشمل ايقاع الضغينة بين الناس او بين الزعماء . وكم من مرة انقلب الجمهور ضد زعيم وتوترت العلاقات بين فريقين من الناس او الاحزاب او الزعماء . ومرد ذلك كله الى الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ! ومن جهة ثانية ، كم عمل الاجراء على ازالة ما بين الزعماء والاحزاب من فرقة ، تمهيدا لايجاد تكتل يعمل لمصلحة الاجنبي . ويأتيك الاجير او الوسيط ويحمل اليك الانباء التي لا تستطيع فرز الصحيح منها عن المغشوش ، والصادق منها عن الكاذب ، الا اذا اكتسبت في العمل السياسي مرانا وصارت اذنك كالمنخل الدقيق ، وعينك قادرة على سبر غور مخاطبك والنفاذ الى اعماق قلبه . وانك لا تقدر على التخلص من المصيدة الا اذا كانت عواطفك واعصابك لا تتهيج لاقل اشارة ، وعقلك لا يتاثر بالمغري من الاقوال والمعسول من الالفاظ ، ورقبتك طويلة كعنق الزرافة لا يجتازها الكلام فيصل الى

الحنجرة ــ كما يقولون ــ الا بعد مدة كافية للتفكير فيـــه . وقلة الكلام افيد للسياسي من وفرته . ولا فائدة مـــن تدويخ الجماهير بالخطب التي تمتد ثلاث ساعات او اربع ــ كما يفعل احد الزعماء. فالمراد هو اقناعهم وتحميسهم والهاب مشاعرهم ودفعهم في الطريق المقصود ، لا انامتهم وتخدير اعصابهم ونسيان مطلع الكلام حــين الوصول الى منتهاه ...

وقلما غاب عني قصد الاجـــير او الوسيط المبعوث الي ، والينبوع الذي يستقي منه التوجيه ، والعميل الـــذي سيؤدي اليه نتائج مهمته او مفعول دعايته مع الآراء التي ينتزعها من مخاطبه .

لكنني كنت في بعض الاحيان اخطىء في عدد المراجع المربوط بها ذلك الوسيط ، وفي عدد الدول التـــي يعمل لحسابها . اذ ان الاجير والوسيط غالبا ما يكونان معلقين بحبـــال متعددة ، اجنبية ووطنيـــة .

فاياك ان تقع في الفخ وتسترسل في ذم او مدح دولة ما امام اجير مزدوج . فهو ينقل كلامك هذا ، على غـــير ما اردت ، الى الدولة الثانية .

اما البيئات التي يسعى فيهـــا العميل واجراؤه ووسطاؤه ، فهي المدارس والاوساط الشعبية والنقابات والاحزاب ، وبصورة اجمالية كل تجمع . فينتدب للتجمع الثقافي واحد او اكثر من المثقفين انفسهم . اما التجمع الشعبي النقابي ، فينتدب له زعيم محلي او مهني .

وتختلف اللهجة المستعملة في هـــذه الاوساط باختلاف اللغة التي يستعملها افراد كل منها ، او العقلية السائدة فيها . ولا يكتفي العميل بارسال موفديه ، بل يدعو الناس الـــى ارتياد الندوة التي يؤسسها باسم مكتب اخبار ، او ناد لتعليم اللغة والرسم . فيتجمع هناك الشبان الحائرون ، شبان العصر الحاضر ، الراكضون دائما وراء هدف في الحياة ، او زعيم تتشوق حناجرهم للهتـــاف له ، او مذهب اجتماعي جديد يعثرون فيه على شيء حديث لم يتراوا عنه، او لم يفهموه . فهم لو فهموه ابتعدوا عنه . ولكل جديد عندهم بريق يبهرهم ويجذبهم ، كمذهب الوجودية ، فيتظاهرون بالانتساب اليه ويرتدون اللباس الذي يرتديه مريدوه ، ويرددون اسم سارتر دون قدرة على افهامك مـــا هي الوجودية ومـــا هي مبادؤها والقواعد

المبنية عليها ــ هذا اذا كان لها ثمة مبادىء او قواعـــد . فهؤلاء الشبان مثلهم مثل العطاش ، يقبلون على اي ماء ويعبون منه عبا. وحظهم هو الذي يخدمهم اذا كان الماء نقيـــا طهورا ، وهو الذي يسيء اليهم اذا ما كانت الجراثيم معششة فيه .

اما النوادي التي ذكرناها ، فاغلبها ، ان لم تكن كلها ، مـــن النوع الثاني . اذ ان فكرة عمل الخير للخـــير نفسه ، او الحسنة لمجرد الانسانية او الفن ، لا تجد في قلوب الاجانب العاملين في بلادنا مكانا تأوي اليه . اذ ان هنالك من سبقها الى اشغـــال هذا المكان واقصائها عنه ... من شياطين الطمع ، والغرض ، والاستيلاء على بلاد الغير ، وفرض السلطان والنفوذ .

وما عطف السفراء والقناصل علــــى النوادي الرياضية او الثقافية الاهلية وتقديمهم لها الكؤوس والجوائز والكتب والمجلات الا نوع من الدعاية ووسيلة من وسائل التقرب التي بها يزيد ذلك السفير او الممثل في عـــدد المحبين لدولته . وما الدعوات التي توجه الى الصحفيين وغيرهم لزيارة البلاد والطواف بمعالمها الا صنارة يلقيها الممثل في الافواه ليصطاد بها . فحينا تعود بالفريسة ، وحينا آخر تعود خالية خائبة .

اهمية الصحافة كوسيلة للتأثير والضغط

وكانت الصحف والمجلات ، وما زالت ، صاحبة المركز الرفيع المرموق . ذلك لانها الآلة المفضلة للدعاية ونشر الاخبار وتوجيه الراي العام وفتح عيون الناس واغماضها . وهي السلك الذي يمر به الكهرباء بين الحاكم والمحكوم ، وبين العميل والراي العام .

وفيما مضى كان الاتصال بين الحاكم والرعية قائما عن طريق الخطب التي يلقيها امير المؤمنين ايام الجمعة على الناس ، فيوجه امورهم وافكارهم نحو الاهداف التي يريدها لهم . اما اليوم ، فقد زالت فوائد هذا النوع من الاتصال ، اذ زاد عدد المؤمنين زيادة لم يعد بوسع اميرهم ان يسمعهم جميعهم صوته . لذلـــك عمد الى الايعاز الى عملائه بأن يتولى كل منهم عنـــه تزويد الرعية بالكـــلام الصالح، دون ان يوجه كل خطيب الى ما يجب ان يتناوله في خطبته. فاصبحت هذه الخطب محصورة بدائرة التوجيه الديني فحسب ، دون التوجيه الدنيوي . وتناقصت فوائد هذه الخطب نفسها ، حين لم يعد باستطاعة كل مؤمن حضور صلاة الجماعة . وهكذا تضاءل الاتصال بـــين صاحب السلطان وافـــراد رعيته ، حتى كاد يضمحل تماما .

وفي اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن الحاضر ، بدأت حركة في سورية ولبنان لخلق صحافة تقـــوم بالتبشير او تروي الحوادث مجردة عن التعليق . ثم نمت الصحافة المصرية على يد اصحابها اللبنانيين ، فتأسست الاهرام والمقطم . لكن سرعان ما ظهر ان الاولى تدافع عن سياسة فرنســـا ، بينما التزمت الثانية جانب السياسة البريطانية . وهكذا وقعت كبرتا الصحف العربية ، منذ يوم ولادتهما ، تحت النفوذ الاجنبي ، بوجههما كيفما شاء، ويؤثر على الرأي العام العربي بواسطتهما .

ولم يكن السلطان عبد الحميد يشجع الصحافة ، ذلك لانه كان يخشى ان تتسرب عن طريقها الدسائس الاجنبية . فهو لم يسمح الا بعدد قليل من الجرائد المحلية ، شرط خضوعها للمراقبة الشديدة . اما الصحف الاجنبية ، فكان لا يـــرد منها الا مـــا ليس له علاقة بالسيـاسـة .

واما في سورية فقد ولدت الصحافة فيها مـــع قيام اول حكم وطني في سورية في ١٩١٨ ، في ظـــل الامير فيصل بن الحسين . واستمرت تنعم بالحرية في كل مرة كان الحكام وطنيين احرارا . اما عهد الانتداب والعهود العسكرية الانقلابية ، فشنت حربا ضروسا على الحرية الصحفية ، بل حتى على الصحف نفسها . فكم ذاقت هذه الصحف ويلات التعطيل الاداري ، او الاغلاق النهائي ، او زج اصحابها في السجن . ذلك ان حرية القلم امـــر لا يتقبله الا من تشبع بفكرة الحريات العامة ، واعتمد دستورا للدولة يسمح للناس بممارسة حقوقهم الانسانية والتعبير عما يـــدور في خلدهم بالكلام وبالكتابة وبالاجتماعات العامة وبالتظاهرات السلمية ، فضلا عن طريق الاحزاب السياسية او مجلس النواب . ومن يعتقد ان هذه الحريات ليست هي الاصل ، بل هي منحة يتكرم بها الحاكم على المحكوم ، لا يستطيع التعايش مع الصحافة في جـــو حر تسوده العدالة والمساواة ، ويحكم فيه الشعب نفسه بنفسه بواسطة وكلاء يختارهم في انتخابات لا تزييف فيها لارادته .

واذا احببنا ان نتمثل ببلد حر ينعم فيه اهله بالحرية كاملة ، تعبيرا وممارسة ، فليس امامنا سوى بريطانيا التي تستحق ، فعلا، لقب « العظمى » لعظمتها في هذه الناحية وانفرادها بتبوء هذا المقام الرفيع بين الدول .

ويا ليتها استطاعت ان تحرر حكوماتها وساستها مـــن فكرة

الاستعمار . فهي لو فعلت لانحنت امامها الرؤوس احتراما وتبجيلا، والتهبت لها الاكف تصفيقا واستحسانا . لكن الكمال في اي شيء امر مستحيل .

قلنا ان الصحافة هي الوسيلة الفعالة التي يتمنى كل عميل ان يستخدمها للوصول الى اهدافه . فهو يمدها باخبار شركات بلاده ، تلميحا او توجيها او ايحاء او دسا ، ويزودها كذلك بالصور الفوتوغرافية تزين بها صفحاتها ، كالحسناوات اللاتي يتبارمن برصف صدورهن واعناقهن واصابعهن وآذانهن بما يبهر العيون من المجوهرات الحقيقية او المقلدة . ولا يبخل العميل – كالعاشق الولهان – في تقديم الهدايا والعطايا التي تعين على تحمل اعباء العيش . من ذلك اعلانات عن جودة مصنوعات البلد الذي يخدمه، بما في ذلك فوائد النفط ، واشتراكات عديدة تساعد الشعب على التلذذ بمطالعة تلك الصحيفة الفذة ، او اموال مخباة في ظرف مغلق تصل الى صاحب الصحيفة في مطلع كل شهر ، وعطايا – كلها ، طبعا ، ضمن ظرف مختوم يلقى في الجيب بحركة خفيفة لا يشعر بها احد – تغدق في مختلف المناسبات او في اسفار يتعلم فيها العميل نفسه الشيء الكثير عن البلد الذي يخدمه ، وذلك بفضل الوصف الدقيق الذي يسطره هذا الصحافي او ذاك ، عقب عودته من احدى تلك الاسفار .

كل هذه المساعدات المالية تقدم في الخفاء وتحاط بالسرية التامة . الا ان الامر وصل في سورية ، في الآونة الاخيرة ، الى ان الكثيرين من ارباب الصحف ، ان لم نقل كلهم ، لم يعودوا يكترثون بطابع البكارة لصحفهم . فاصبحوا يتحرشون بالعملاء ، لا بعميل واحد ، لقبض اتاوات شهرية ومساعدات استثنائية . كما اصبحوا لا يستحون من عرض صفحات صحفهم للايجار او البيع ، حتى صارت مهنة الصحافة في مقدمة المهن التي يجني اربابها منها ايرادا ضخما .

ولا يقتصر هذا الامر على كبارهم فحسب، اذ ان للخبر الصغير اثرا في الحياة العامة كاثر المقالة المدبجة المستفيضة . وازداد التسابق بين ارباب الصحافة على مكاتب السفراء والعملاء الاجانب والعرب ، وعلى من كان يجلس صباحا في غرفته ، كمخائيل اليان ، في فندق امية ويجتمع مع الشرذمة التي اشتراها من الصحفيين. فيلقي عليهم التوجيه اليومي ويرسم لهم الخطوط الهجومية

والدفاعية . ثم تخرج الجرائد التابعة له محشوة بالمقالات المسمومة وبالاخبار الملفقة ، وفق خطة معينة تستهدف كلها غرضا سياسيا تتوق بريطانيا الى تحقيقه . وتصل هذه الدعاية الى القارىء ملفوفة باطار الوطنية البراق ، حاملة الحملات الشعواء على زيد او عمرو من السياسيين ذوي الاتجاه المغاير لاتجاه مخائيل اليان ، وهي كلها محشوة بالكذب والتضليل ، سداها الشتم البذيء ولحمتها الاختلاق القذر . ويكون الابيض فيها اسود ، والاسود زاهيا لماعا . وهي لا تقتصر على حدود العمل العام ، بل تنفذ الى الحياة الخاصة ، فتصم اعداءها بأشنع التهم ، وتنسج خيوط الافتراء عليهم نسجا محكما يستولي على النفوس . ثم انها لا تتورع عن ذكر المحارم على نحو ينال من كرامة الخصم ويحمل الراي العام عن الابتعاد عنه .

وقد غفل مخائيل وامثاله الذين اتبعوا خطة مماثلة لضرب خصومهم عن ان الراي العام الذي يقصدون اثارة عواطف الشرف والعفة فيه ، لا يتقبل هذه الدعاوى الا بعد تمحيصها . ذلك انه مزود بقدر كاف من عدم التصديق ، عالم بأن هذا الكلام هراء مبني على الغرض ، فيعرض عن صاحبه وعن جريدته . وحتى لو قرأ الخبر على سبيل التسلي ، انهاه بضحكة استهزاء بكاتب الخبر وبدافع ثمنه على السواء .

وكنت ، وما ازال ، اعتقد ان هذه الحملات بعينها ، وان أثارت في النفس كوامن الغيظ والقرف ، فهي لا تفيد في حمل الناس على الابتعاد عن زعيم سياسي شهدت له اعماله ومواقفه المشرفة . ولطالما كنت هدف اعنف الحملات المغرضة التي تناولت حياتي الخاصة والعامة ، بحيث كدت اخشى مغبة هذا التركيز علي في الصحف والمجالس والاوساط . وكان ذلك في اشد معركة انتخابية اشتركت فيها ، دون ان تساندني جماعة او يعضدني حزب . بل لم يرافقني فيها سوى مواقفي الطيبة ودفاعي العنيد عن مصالح بني قومي ، وسوى طهارة يدي وحسن تفكيري وتقديري للامور في الحاضر والمستقبل ، فضلا عن تشددي في ايصال الحق الى صاحبه وعدم التزامي جانب صديق او نسيب . وفي تلك المعركة الانتخابية، احتارت العقول الخبيثة في اختيار وسائل تهديمي واختلاق العيب فيّ وفي ما يتعلق بحياتي الخاصة . فالصقت المناشير على الجدران، وكتبت المقالات في بعض الصحف ، والقيت الخطب في الحفلات ، وسرت الوشوشات من الافواه الى الآذان ، كما لو كنت الوحيد

الذي يشكو من هذه المساوىء ، هذا على افتراض صحتها .

لكني سلمت من تلك السكاكين المسمومة ، فخرجت من المعركة ظافرا باكبر عدد من الاصوات ناله مرشح في سورية بعد السيد معروف الدواليبي في حلب ، وفيها من السكان اكثر مما في دمشق . فاثبت الشعب ان الترهات ليس لها سبيل الى عقله ، وان الدعايات المغرضة تتكسر على الصخور تحت قدميه . فهو يختار من الاخبار ما يعتقد بصحته وبخلوه من الغرض ، وينبذ بالباقي تحت قدميه ويدوسه باشمئزاز . ولا يخلو الحال من وجود من يستلطف هذا الاسلوب من المجون . لكنه ينهي قراءته بضحكة بريئة ، ثم يلقي الجريدة في سلة المهملات .

ولو اقتصر الامر في هذه الحملات على ابناء الوطن ، تشفيا لحقدهم وحسدهم ، لهان الامر ولغفر لهم . لكن المؤلم ان يستعمل هذا السلاح عملاء الاجانب واجراؤهم ، الى ان شاع هذا الفساد في خلق الصحفيين ، فراحوا يفتحون اعمدة جرائدهم لهذا الاسلوب في حرب الاعصاب وحرب التهديم والتخريب . وغاب عنهم أن طريقة الشتم والقذف طريقة بخسة يستعملها اوباش الشوارع ، ولا تلصق الاهانة الا بصاحبها .

اسود فترة تمر فيها الصحافة السورية

ومرت على الصحافة السورية في السنين الخمس التي سبقت اعلان الوحدة اسود فترة في تاريخها . اذ هبطت سويتها الى الحضيض ، بعد ان اضاعت شعلتها الوطنية طريق النضال ضد الافرنسيين ، وبعد ان اسهم قدامى ارباب القلم في المعارك العديدة ضد الاجنبي . فسجن منهم من سجن ، واغلقت جريدته مرارا وتكرارا ، لكنه ظل رافع الرأس ، حاملا الرسالة ، لا يغريه مغر ولا يحيد به عن الطريق المستقيم تهديد ووعيد .

وبلغ من سوء الحال ان امسى اصحاب الجرائد كلهم يقبضون الاموال من الحكومة المحلية ، ومن عميل او اكثر من العملاء الاجانب ، ومن الشركات الكبرى ، ومن المصارف ، ومن الاحزاب ، ومن كل من سولت له نفسه مهاجمة خصم سياسي او شخصي . فكنت ترى الحملات يتردد صداها بين جريدة وجريدة — وكان بين بعضها اتفاق وانسجام كالالات الموسيقية في فرقة يدبرها قائد ماهر — والاخبار المختلقة تروى بدون حياء، والمقالات المسمومة تنم عن المقاصد السيئة التي يحملها كتابها والموعزون بها تحت ستار الغيرة على الوطن ومصالحه .

وتصوروا الاثر الذي يتركه في النفوس ما يقدم صباح مساء من المقالات والاخبار والدسائس ومن التضليل والتخدير . فهل يستغرب ان يفقد الشعب ثقته بزعمائه وقادته ، وان يعتبرهم اسوأ من يمشون به الى الهاوية ؟ ومع ذلك كله ، فلم يصب الشعب بزعزعة قاتلة ولا باضمحلال ثقته بالمستقبل . لكننا هل نستطيع التأكد من ان هذه الدعاية اليومية لم تضعف من عزيمته البتة ؟ كلا . فنحن نشعر بالارتخاء في الشعور العام وبشيء من رغبة في التبديل — تبديل كل شيء : النظام ، والحكام ، والاحزاب ، والمجالس ، والحكومات ، والوجوه والاسماء . فلما اعلنت الوحدة في مطلع ١٩٥٨ ، ظن الناس ان الحال ستتبدل الى احسن . ولم يدر في خلدهم ان الامور ستزداد سوءا اكثر بكثير من ذي قبل ، الا في حقل الصحافة ، حيث الغي امتياز اكثر الصحف وفرض على القليل الباقي منها نوع من الرقابة لا تشبه اية رقابة في العالم . فزالت عن الجرائد صفتها واصبحت صحفا بيضاء مطبوعة بالحبر الاسود ، لو تركت ووزعت بدون طبع ، لتمكن الناس من استعمالها والافادة منها اكثر مما فعلوا وهي مشوهة بالحبر ! على ان الفائدة الوحيدة التي نالت البلاد من النظام الصحفي في عهد الوحدة هي التخلص من المهاترات والشتائم ، ونضوب الدس والتوجيه الاجنبي . الا ان مضار هذا النظام يتجلى في تخديره الراي العام واخفاء الحقائق عنه وتركه يتخبط في بحر الشائعات التي لا تطالها المراقبة ، وفي حرمان الشبيبة من مرافقة التطورات العالمية والاطلاع على ما يجري في البلاد الاخرى . ففي هذا من المضار ما لا ينكر . اذ اننا الان اشبه ما نكون بمريض يعزله اهله عن تلقي الاخبار عما يجري حوله في العالم القريب والبعيد ، وذلك بداعي الخوف على صحته من فوران اعصابه ! وها ان جرائدنا المنتشرة في دمشق الان لا تفرق كثيرا عن زميلاتها التي كانت تصدر في اللاذقية او حماه ، بل هي ادنى منها سوية من حيث التوجيه الوطني !

والان لنعد الى موضوعنا الاول ، وهو ان الصحافة وسيلة يستخدمها الاجنبي ، لنختمه بكلمة اعتذار للاصدقاء العديدين من المحررين واصحاب الصحف الذين ايدوا سياستي وحملوا معي لواء معارضة الاحلاف الاجنبية، وساعدوني في توجيه الراي العام نحو ما فيه مصلحته . فقد ذكرتهم مع سواهم، رغم الفوارق بينهم في الاخلاق والطبائع . لكنهم مع الاسف كانوا مضطرين في بعض الايام العصيبة

الى غض النظر عن مصدر الاموال التي كانت تسد فجوة العجز عن ميزانية صحفهم .

ويلوم البعض الحكومات المحليـــة على انها قصرت في فتح مدارس صحفية ، كأنما المدارس تعلم الصـــحفيين حسن الخلق والنزاهة والعفة وسمو الادراك والوعي القومي ، او انها ترشدهم الى التنظيم المالي الذي يؤمن للصحفي الربح بدل الخسارة في مهنته . فهذه المدارس لا تنفع طلابها الا من حيث الطرق الكفيلة بالحصول على الاخبار واستنباط النتائج التي تسفر عنها الاحداث .

فعلة الصحافة عندنا في قلة مواردها الناجمة عن نقص عدد القراء وما يؤدي اليــه مــن نقص المطبوع وندرة الاعلانات . وقد يجيبك القارىء بانه لا يجد في الجريدة ما يشفي غليله ويستحـــق الانفاق عليه ، ويتذرع التاجر او الصانع بقلـــة انتشار الجرائد فلا يطلع على اعلاناته الا العدد اليسير بحيث لا تتكافأ اجورها مع مـــا تستجلبه من زبائن .

والحقيقة انها حلقة مفرغة : البيضة من الدجاجة او الدجاجة من البيضة ؟ فضعف الجـــرائد من حيث عدد محرريها ومخبريها ومراسليها ناشىء عن قلة موردها من البيع وهذا ناشىء عن فقر مواد الجريدة وعدم احتواء اعمدتها الابحاث والاخبار التي تستجلب القـــارىء .

فهل من وسيلـــة لربط هذه الحلقـــة والخروج بصحف غزيرة بالمواد ، وايجـــاد العدد الكافي مـــن القراء والمعلنين لسد حاجـــة الصحيفة وحمايـــة اصحابهـــا من اغراء العميل الاجنبي او صاحب الغرض المحلي ؟ فمما لا شك فيه ان عدد الجرائد في سورية وصل الى حالة الاشباع او اكثر . ولو اقتصر هذا العدد على ثلاث او اربع جرائد في دمشق ومثلها في حلب وتمكن اصحابها من تأليف شركة او شركتين تأخذ على عاتقها اصدار هذه الصحف وتأمين موارد كافية لاصحابها ، لبات الرجاء معقودا بانهاء هذه المعضلة التي لا ينحصر اذاها بمالكـــي الجرائد ومحرريها ، بل يصيب سواد القراء والراي العام ، وبصورة غير مباشرة ، الاخلاق ومستقبل البلاد السياسي .

وقد راينا ان هذه المهنة انتسب اليها عدد ممن لم ينجحوا في الحياة ، فجعلوا اصدار الصحف موارد رزق حلال او حرام . ثم اخذوا يهددون الناس بنشر ما خفي من اسرار حياتهم، او حتى بسلوك

طريق الاختلاق ، وذلـك ليقبضوا الاموال من المسكين الذي يقع في شباك صيدهم اليومي .

وما الفرق ، بالله ، بينهـم وبين قاطع طريـق يستفرد احد الناس في ليلـة ظلماء على طريـق موحش ، فيستل خنجره ويهدده بالقتل اذا تمنع ذلك المسكين عن اعطائه ما يحمله من مال ؟

وكثيرا ما علق الوزراء والموظفون تحت مخالب ذلك النفر من الصحفيين الجشعين الذيـن لا يردعهم ضمير ــ وكيف ذلك وليس لهم ضمير ــ عن اختلاق الاكاذيب والافتراءات . وكان على الوزير او الموظف ان يختار اهون الشرين ، فيضحي بماله لحفظ سمعته من ان تلوكها حتى الاكاذيب . اذ ان الكذب المتواصل يفعل كالحقيقة . فهو يترك اثره ولو خمشا وضعضعة . وقد قال الوزير عبد القادر حاتم في احدى المحاضرات التي القاها في المعهد الصحفي بالقاهرة : « اكذبوا . اكذبوا . فلا بد مـن ان يعلـق شيء من الكذب في آخر الامر ! »

القاهرة وسياسة الكذب عـلى الناس

وقد سار حكام القاهرة على هذه الخطة ، وهي الكذب على الناس . فملأوا خطبهم وحقول الصحف التي يشرفون عليها بـالاخبار الملفقة والدعاية لمشاريع وهمية ، حتى كاد الناس في المدة الاولـى يظنون ان البلاد سوف ترفل بنعيـم لا يعادله نعيم الدنيا والاخرة ، وحتى اعتقد الوزراء انهم اذا تعرضوا لهجوم الصحافة فمرد ذلـك الى الوظيفة التي يشغلونها وليس لاشخاصهم صلة بها . وذهبوا الى جواز دفع غوائل الصحفيين من صندوق النفقات السرية ، ومنح ارباب القلم عطايا الدولة ورخصها وما الى ذلك من الفوائد ، كشراء الكتب السخيفـة والعدد الوفير من « الدليل السوري » الذي كان يؤلفه او يجمعه صحفي او مجموعة من الصحفيين . وكم من حملة قاسية وجهـت الـى وزير او مدير بسبب رفضه شراء هذه الكتب وتحميل خزينة الدولة ثمنها الغالي .

ولم يكتف اصحاب الصحـف ببيع كتبهم وقبض الاشتراكات المفروضة بعدد وافر ، بل راح بعضهم يعمل بالتجارة فيغزو وزارة الاقتصاد الوطني ورئاسـة الوزراء بطلبات رخص الاستيراد ، ووزارة المالية بالقطع النادر يبيعه فورا في السوق السوداء . هذا ناهيك بالتنافس على الحصول على اكبر عدد من اعلانات الدولة . واضاف بعض الصحفيين علـى تخصصهم مادة جديدة وينبوعا جديدا ، الا وهو انهم بحسب درجـة صداقتهم او زلفاهم لدى الوزراء وكبار

الموظفـــين وصغارهم صاروا يراجعونهم من اجــل قضايا فردية يقبضون من اصحابها اجرا لقاء مسعاهم لدى ذلك الوزير او حتـــى ذلك الموظف . ويا ويل الوزير او الموظف الذي يرفض الشفاعة ويرد الطلب . فوزارتـــه او دائرتـــه تتفشى فيها الفوضى ، وتفوح منها روائح الرشوات ، ويداس فيها القانون . ولو كانت القضية التي جاء من اجلها ذلـــك الصحفي صحيحـــة وقانونية لما احتاجت الى تدخله ، بل كانت سارت سيرها العادي على ما يرتضيه صاحبها . لكن الالتماس يرد حينما يكون ثمة خروج على الحدود القانونية . وهو التماس مدعوم بتدخلات من له عند الوزير او الموظف حظوة من المحامين او زعماء الاحياء او الصحفيين او الاصدقاء او الاقارب . والغريب في طباع اكثر الناس في سورية انهم يفضلون ان تستقبلهم بوجه بشوش وان تكيل لهم الوعود الكاذبة وان تماطلهم وتسوف في قضيتهم على ان تصارحهم بالحقيقة ، من اول مرة ، وتفهمهم استحالة تلبية طلبهم لمخالفته القانون والنظام . وقد قال احد الاصدقاء عندما ابديت له اسفي لعدم اجابة طلب له : « اني صدمت بهذا الرفض ! » فسألته : « هل تفضل ان اعدك كذبـــا وان اماطلـــك ؟ » فقال : « نعم ! » فقلت : « لكنك ستعلق املك على اجابة الطلب وهو صائر الى الرفض في النهاية ، فتفوت عليك فرصة تشبثك بأية صفقة قد تعود عليك بالربح اذا كانت ضمن الامكانات ! »

فاجابني بصراحـــة : « اننا نفضل المواربة والخديعة وجميع المواعيد الكاذبة على صراحتك القاسية . » فقلت له : « سواء لدي رضيت او غضبت . فأنت حر في موقفك ، وانا حر في التقيد بمبداي وعـــادتي . »